نوابغ الفكر العربي

٥

ابن زيدون

بقلم

الدكتور شوقي ضيف



دار المعارف

مجموعة نوابغ الفكر العربى

مجموعة جديدة جامعة تقدم نوابغ الفكر العربى فى جميع العصور ، كما يصورهم ويترجمهم نوابغ الفكر العربى فى العصر الحاضر من كل قطر وبلد ؛ فهى تعنى بالشعراء والكتاب كما تعنى بالفلاسفة والحكماء ، وتتناول أعلام اللغة كما تتناول أعلام التاريخ . وقد رأت دار المعارف أن تعهد فى كل بحث من هذه البحوث إلى المختصين وذوى الخبرة والدراية فيه ؛ فيجولوا فيه ويتبعوه بباب واف للمختار من روائع المترجم له مفسر المعانى مبين الأغراض .

● ظهر منها :

١ – ابن رشد .
٢ – الجاحظ .
٣ – الشيخ نجيب الحداد .
٤ – محمود سامى البارودى .
٥ – ابن زيدون .
٦ – الشيخ ناصيف اليازجى .
٧ – إخوان الصفا .
٨ – بشار بن برد .
٩ – بديع الزمان الهمذانى .
١٠ – أبو الفرج الأصبهانى .
١١ – ابن الرومى .
١٢ – الفرزدق .
١٣ – السهروردى .
١٤ – الشيخ إبراهيم اليازجى .
١٥ – المتنبى
١٦ – البحترى
١٧ – الخنساء
١٨ – ابن قتيبة .
١٩ – جرير .
٢٠ – ابن المقفع .
٢١ – أبو حيان التوحيدى .
٢٢ – ابن سينا .
٢٣ – عبد الرحمن الكواكبى .
٢٤ – رفاعة رافع الطهطاوى .
٢٥ – خليل مطران .
٢٦ – ولى الدين يكن .
٢٧ – صفى الدين الحلى .
٢٨ – البهاء زهير .
٢٩ – جمال الدين الأفغانى .
٣٠ – تقى الدين بن حجة الحموى .
٣١ – الفارابى .
٣٢ – ابن رشيق القيروانى .
٣٣ – القاضى الجرجانى .
٣٤ – حسان بن ثابت .
٣٥ – قاسم أمين .
٣٦ – ضياء الدين بن الأثير .
٣٧ – يعقوب صروف .
٣٨ – المسعودى .
٣٩ – أمين الريحانى .
٤٠ – حسن العطار .
٤١ – الشريف الرضى .

ابن زیدون

نوابغ الفكر العربي

٥

ابن زيدون

بقلم الدكتور شوقي ضيف

أحد من جر الأيام جرا ، وفات الأنام طرا ، وصرف السلطان نفعاً وضرا .
ابن بسام

الطبعة الحادية عشرة



دار المعارف

الفصل الأول

عصر ابن زيدون

١ — الحياة السياسية

لا نكاد نُشرف على القرن الخامس للهجرة الموافق للقرن الحادى عشر الميلادى حتى نرى شمس الخلافة الأموية فى الأندلس تغرب رويداً رويداً فى عين حمئة[1] من الفتن والاضطرابات . وتصادف أن الجيش كان ضعيفاً ، ولم يكن مُعَدًّا إعداداً حربيًّا كاملا ، فاختلّ الميزان ، وتقوّض البناء الضخم الذى شادته العبقرية الأموية بقرطبة ، وقامت على أنقاضه دول مُلوك الطوائف المعروفين فى الأندلس ، إذ نرى كل إقليم بل كل مدينة تحاول أن تستردّ حريّتها ، فيكون لها استقلالها ونظامها وحياتها .

وتوزعت العناصر التى كان يستخدمها الأمويون فى دولتهم هذه الممالكَ والدولَ الجديدة ، فكان للبربر الجنوب وأشهرهم بنو زيرى فى غرناطة ، وكان للصقالبة الشرق وأشهرهم خيران فى مُرْسِيَه والمرِيّة ، وخلفه على الأولى بنو عبد العزيز أصحاب بَلَنْسِيَة وعلى الثانية بنو صمادج ، وكان الوسط والغرب شركة بين العرب والمولدين والبربر ، فكان فى قرطبة بنو جَهْور وفى إشبيلية بنو عبَّاد وفى طُلَيْطِلَة بنو ذى النون وفى بَطَلْيَوْس بنو الأفطس وفى سَرَقُسْطة بنو هود وفى السَّهْلَة بنو رَزِين .

وعلى هذه الشاكلة أصبحت الأندلس أندلسات كثيرة ودويلات صغيرة ، وهى دويلات كان يناهض بعضها بعضاً ، كما كانوا يناهضون أعداءهم من الجبليين المسيحيين فى الشمال . وغُلب كثير من هذه الدويلات

---

(١) حمىء الماء : خالطته الحمأة وهى الطين الأسود .

الإسلامية على أمره ، فنزل عنه أصحابه لفرناند ملك قشتالة وليون، أو دفعوا الجزية عن يد وهم خاضعون . وتبع فرناند ألفونس السادس فسعر[1] الأندلس بحروبه وأشعلها بجيوشه ، فاستغاث المعتمد بن عباد زعيم ملوك الطوائف وكبيرهم بيوسف بن تاشفين ملك المرابطين فى المغرب ، فأغاثه بجيش جرار هزم المسيحيين هزيمة منكرة فى موقعة الزلاقة المشهورة . ولم يلبث أن ضمّ الأندلس كلها تحت جناحى دولته، إذ رآها لقمة هينة سائغة .

وبذلك قُضى على هذا النظام المعروف باسم ملوك الطوائف ، ولم يكونوا ملوكاً مستبدين كما قد يتبادر إلى الذهن ، فقد اختارتهم مدنهم ، واختاروا إلى جانبهم مجموعة من الحجّاب أو الوزراء ، كانت تنظر فى شئون الدولة ، وتعرض ما تراه على رئيسها، وكان يبلغه بدوره إلى الحاكم العام .وحُكْمهم من هذه الناحية شبيه بالحكم الجمهورى .

ومن يرجع إلى قيام حكومة بنى جَهْوَر فى قرطبة يستطيع أن يلاحظ ذلك فى وضوح ، فإن الوزراء نهضوا بعد سقوط الخلافة الأموية بأعباء الحكم وإدارة المدينة ، وتألف لهم مجلس برياسة أبى الحزم جَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر، فكان هو الحاكم العام ، ولم يختره الوزراء وحدهم، بل اختارته معهم قرطبة كلها من قضاة ورجال دين وشعب أو عامة .

وبهذه الصورة أو بشكل مقارب منها اختارت إشبيلية فى أواخر العهد الأموى وفى أثناء الفتن قاضيها محمد بن عباد اللخمى ليدير شئونها، وخلفه من بعده ابنه المعتضد[2] ، وكان يساعده وزراء لا يستطيع أن يبرم أمراً من دونهم ، فهم يجتمعون بانتظام وينظرون فى مصالح المدينة ومرافقها وشئونها السياسية والحربية .

وهذا هو معنى ما نقوله من أن العرب عرفوا فى الأندلس لعهد ملوك

---

(١) سعر النار : أشعلها .

(٢) تكثر الألقاب فى عصر ملوك الطوائف ، ومن هنا قال ابن رشيق القيروانى :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ... أسماء معتضد فيها ومعتمد

ألقاب مملكة فى غير موضعها ... كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

الطوائف نظاماً شبيهاً بالنظام الجمهورى ، فلم يكن نظامهم الملكى هناك نظاماً استبدادياً ، بل كان نظاماً شبيهاً إلى حد بعيد بالنظم الجمهورية . ولم تكن مجالس الوزراء وحدها هى التى تحدّ من استبداد الملوك ، بل كان يحدّ منها القضاة أيضاً ، إذ كان للقضاء هناك استقلال مكفول ، وكانت كلمة القاضى فوق كلمة السلطان ، وكثيراً ما ردّ شهادة السلاطين والوزراء والملوك .

وليس هذا كلّ ما يلاحظ على الحياة السياسية فى الأندلس لهذه العهود ، فمن أهم ما يلاحظ أيضاً أن رجال الدين كان لهم نفوذ واسع على الشعب ، وهو نفوذ كان ولاشك أكثر وأقوى من نفوذ أصحاب السلطان . وثورةُ رجال الدين وأهل قرطبة على الحكم الرّبَضِي شائعة معروفة . وقد اشتهرت قرطبة فى هذا العصر بكثرة فقهائها وتزمّتهم وفتنهم واضطراباتهم وجرأتهم على أمرائهم وحكامهم ، وكثيراً ما ارتفع صوت العامة معهم ، وخاصة إذا أُهْمل حَدّ من الحدود .

وهذا كله يقيد من سلطان ملوك الطوائف لا فى قرطبة وحدها ، بل فى المدن الأندلسية المختلفة ، فهناك مجلس الوزراء ، وهناك القضاة ، وهناك رجال الدين ، وهناك الشعب الذى يصرخ دائماً فى وجوه الملوك ووزرائهم وقضاتهم ، فكانوا يخافونه ويرهبونه ويحسبون حسابه فى كل كبيرة وصغيرة .

٢ — الحياة الاجتماعية

ليس فى العالم العربى إقليم اختلطت به الدماء والأجناس كما اختلطت بالأندلس ، فقد سكنها قديماً أقوام مختلفون من السّلْت والبَسْك والجلالقة ، واستعمر الفينيقيون واليونان بعض مدنها على بحر الروم ، ثم نزلها الرومان مستعمرين ، ونشروا فيها لغتهم اللاتينية ، كما نشروا فيها المسيحية . وتمضى الأندلس فى الاتصال بروما وإذا موجة عنيفة من القبائل الجرمانية تكتسحها ، وتقيم بها صرح دولة كبيرة ، وهى موجة الفندال ، ومن اسمهم اشتق العرب كلمة الأندلس التى أطلقوها على شبه جزيرة أيبريا كلها . وتستقبل البلاد موجة جديدة هى موجة

القوط الغربيين ، ويستمر لهم حكمها وسلطانها حتى يفتحها موسى بن نصير بجيش مؤلف من العرب والبربر . ويمضى المسلمون فى حكمها ، ويؤسس بها عبد الرحمن الداخل دولة أموية عظيمة ، ويستعين خلفاؤه بحرس يشترونه من فرنسا وإيطاليا وألمانيا ، وقد غلب عليه عنصر الصقالبة ، كما يستعينون باليهود الذين كانوا مضطهدين فى الأندلس قبل الفتح الإسلامى .

ومن هذه العناصر كلها كان يتألف المجتمع الأندلسى ، وهى عناصر متباعدة ، فمنها الأسيوى كالعرب ، ومنها الإفريقى كالبربر ، ومنها الأوربى : الأسبانى والإيطالى والفرنسى والألمانى . وكل هؤلاء عاونوا فى الحضارة الأندلسية . وواضح أنهم يؤلفون مزيجاً مركباً من شعوب وأجناس مختلفة ، ومن أجل ذلك يكون من الصعب استخلاص صفات عامة أو مشخصات مميزة لهذا المجتمع .

ومع هذا كله فإن من يمعن النظر فيه يجد له شخصيته فى عصوره الإسلامية المختلفة ، فهناك طوابع خاصة تطبعه وتميزه . ومن أهم هذه الطوابع ميله الشديد إلى الثورة ، وعصر ملوك الطوائف نفسه أكبر تعبير عن هذا الميل ، فكل مدينة بل كل قرية ترى أن الوقت قد آن لترد سلطان غيرها عنها ، وتشق طريقها وحدها فى حياتها ، فتستقل ، ولا تلبث أن تمد ذراعها إلى جيرانها تريد أن تستولى عليهم ، فتقوم بينها وبينهم الحروب ، ويستمر المد والجزر ، ويستمر التطاحن والعراك .

ولم يكن هذا شأن المسلمين وحدهم فى الجنوب ، بل كان شأن المسيحيين أيضاً فى الشمال ، فالنزعة واحدة وحمية سفك الدماء واحدة . ومن هنا كثر الصراع بين المسلمين والمسيحيين ، ثم بين فئات الطرفين المختلفة .

وما من بلد عرف أهله بمصارعة الثيران معرفة الأندلسيين بها ، ومن ثمّ كان يكثر الصراع بينهم وتكثر الخناجر والسيوف والسموم ، ويكثر السجن والعذاب فى غير رحمة ولا شفقة .

على أن هذا الطبع الثائر جعل الأندلسىّ يعتد بنفسه وبحريته ، واعتدت معه المرأة بذلك أيضاً ، فكان لها حريتها ، وهى حرية لا يعرفها المجتمع الشرقى

فى بغداد وغير بغداد ، وإنما يعرفها المجتمع الأندلسى فى قرطبة وغير قرطبة ، إذ نجد المرأة تحظى بتقدير المجتمع ، ويكون لها مجلسها الذى تستقبل فيه أعيان عصرها وأدباءه على نحو ما نعرف عن المرأة الفرنسية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر. وليس معنى هذه الحرية أن أهل الأندلس كانوا منفكين عن التقاليد الدينية . فلم يكن لرجال الدين فى قطر من أقطار الإسلام ما كان لهم فى الأندلس من هيبة وسلطان وجلال ووقار .

وكأن الأندلس بلد المتناقضات ، فهى بلد الثورة المستمرة ، وهى بلد التقاليد الدينية ، وهى فى الوقت نفسه بلد الحرية ، ثم هى بلد الترف إلى أوسع ما يكون الترف . وقد وُجد الترف فى المشرق ، ولكنه لم يشع بين أفراد الشعب على نحو ما شاع فى الأندلس ، إذ نجد كل شخص يعبُّ من كئوس الخمر واللذة متهالكاً فى ذلك مسرفاً فيه إلى أبعد ما يكون التهالك والإسراف ، حتى القضاة أنفسهم ورجال الدين ، فقد كان أبو بكر بن ذكوان قاضى أبى الحزم ابن جهور صاحب قرطبة أجلَّ من اشتمل عليه عصره وقاراً ومهابة مع عدله فى قضائه وإنفاذ الحكم بمقتضى الحق وإمضائه . هكذا كان مجلسه فى النهار ، حتى إذا جنَّه الليل أقبل مع صحبه على القصف ، وتجاوز فى ذلك كل وصف[1] . واشتهر ملوك الطوائف إذا استثنينا بنى جهور بالفناء المطلق فى اللذة والترف ، ولا سيما بنى عباد أصحاب إشبيلية ، فكانوا إذا تخلصوا من شئون الحكم وتقاليده نصبوا مجالس الخمر والأنس ، وأسرفوا فى ذلك إسرافاً لا حد له .

٣ — الحياة العقلية

ا — العلم والفلسفة

ارتبطت الأندلس فى علمها وفلسفتها بالمشرق ، فقد كانت تستورد منه نماذجها الثقافية ، تارة يذهب أهلها إليه ، ليتعلموا على يديه ، وتارة يرسل

(١) اقرأ فى ذلك المجلد الأول من القسم الأول من الذخيرة لابن بسام (طبع جامعة القاهرة) ص ٣٥٨ .

هو إليها علماءه أمثال أبي علي القالي . وفي « كتاب نفح الطيب » للمقرى ثبتان طويلان بمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق فى طلب العلم ومن رحلوا من المشرق إلى الأندلس ابتغاء المجد العلمي والشهرة .

وأتاح الأمويون وخاصة فى عهد عبد الرحمن الناصر وابنه المستنصر للأندلسيين فرصاً عظيمة ليقبلوا على الدراسات العلمية ، واشتهر المستنصر باستكثاره من المدارس التي أنشأها بجانب جامعة قرطبة التي كانت تشع أضواؤها فى العالم الغربي كله ، فكان المسيحيون يدرسون فيها بجانب المسلمين ، ويعودون إلى ديارهم بأقباس من العلم والثقافة .

وعلى نحو ما عُني المستنصر بالجامعة والمدارس المختلفة حولها عني بجمع الكتب من الأقطار الإسلامية ، فألف بذلك مكتبة ضخمة حوت أربعمائة ألف مجلد ، ويقال إن فهارسها بلغت أربعة وأربعين فهرساً ، كل فهرس اختصت به كراسة اشتملت على عشرين ورقة .

وهذا كله كان معناه حدوث نهضة علمية وفكرية محققة . ويظهر أن عناية الأندلسيين انصبت أكثر ما انصبت على الدراسات اللغوية والفقهية . وقد اختاروا مذهب مالك وآثروه على غيره من المذاهب ، وتزخر كتب التراجم بأسماء فقهائهم ، كما تزخر بأسماء اللغويين والنحويين والقراء والمفسرين والمحدثين .

فالأندلس سارعت إلى التزود بالثقافة الإسلامية والعلم الإسلامى المتصل باللغة والقرآن الكريم والدين الحنيف . وتبدو هناك آثار من التزمت الشديد ضد الفلسفة ، ولعل ذلك هو السبب الحقيقي فى تأخر الحياة العقلية الخصبة هناك. وكان ملوكهم يعرفون فيهم هذه النزعة فإذا أرادوا تملقهم حرقوا لهم كتب الفلسفة وما يتصل بها من قريب أو بعيد[1] .

ومع ذلك فنحن لا نصل إلى عصر ملوك الطوائف حتى نجد الكثيرين قد عرفوا الفلسفة وتزودوا من مواردها المختلفة فى الرياضة والطبيعة والفلك والطب. وربما كان ابن حزم خير من يفصح عن ازدواج التفكير الفلسفي بالتفكير الديني فى هذا العصر ، وهو من المولدين ، فأجداده ليسوا عرباً ، وإنما هم من أعاجم

---

(١) نفح الطيب طبعة دوزى وزملائه ١/١٣٦ .

الفرس ، وقد تخرج فى جامعة قرطبة وعلى أيدى أساتذتها .

وإذا زعمنا أنه أحد العقول الفذة التى لمعت فى تاريخ العرب على مر العصور لم نبعد، فقد كان نشيطاً إلى أبعد حدود النشاط ، وألف فى مختلف ضروب الثقافة، وأظهر امتيازاً وذكاء نادراً فى كل ما ألف : فى الفقه وكان ظاهرى المذهب، وفى المنطق والكلام ، وفى الأصول والحديث ، وفى التاريخ والأنساب. وأهم كتبه وأنفسها كتابه « الفِصَل فى الملل والأهواء والنحل » وهو يعرض فيه، عرضاً لم يُسْبَق إليه، الفرقَ الإسلاميةَ المختلفة وآراءها واعتقاداتها، كما يعرض الديانتين اليهودية والنصرانية، ويتنبه لبعض مشاكل فيهما لم يتنبه لها العلماء إلا منذ ظهور مدارس النقد الدينى فى القرن السادس عشر الميلادى .

والحق أنه الثمرة اليانعة لشجرة العلم والفلسفة فى هذا العصر ، عصر ملوك الطوائف ، وبجانبه ثمرات أخرى لجنات آتت أكلها لا فى ميدان الأندلس وحدها ، ولا فى ميدان الحياة الإسلامية العقلية وحدها ، بل فى ميدان الحياة الإنسانية كلها ، فقد كان الغرب المسيحى يُقبل على قرطبة ، وينهل من معارفها وثقافاتها ، وكان لذلك أثره القوى فى النهضة الأوربية الحديثة .

ب — الأدب

من المعروف أن العرب لم يدخلوا بلداً من البلاد فاتحين إلا فتحوه لغوياً كما فتحوه سياسياً وأبدلوه من لغته الأصلية لغتهم العربية. وكان القرآن الكريم هو القبس الذى يضيىء فى أثناء هذا الصنيع ، إذ لقنوه الأمم المغلوبة ، وبثوا فى أبنائها إعجاباً لا حد له بأدبهم من شعر ونثر ، سواء فى ذلك من اعتنقوا دينهم الإسلامى ، ومن ظل على دينه القديم . ونحن لا نصل إلى القرن الرابع الهجرى فى الأندلس حتى نجد المسيحيين هناك يهجرون اللاتينية فى طقوسهم الدينية ، ويستخدمون العربية مكانها[1] .

وهذا معناه أن اللغـــة العربية انتصرت هناك ، ودخل أهل الأندلس ، كما دخل أهل الأقاليم الأخرى ، فى نطاقها ، فأصبحت لغتهم

---

(١) انظر نيكلسون : التاريخ الأدبى للعرب ص ٤١٥ .

الأدبية ، وأصبحوا يتخذونها للتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم . وقد عاشوا يقلدون نماذجها المشرقية ، ويتحدون بها كأنها جزء من حياتهم ومعتقداتهم ، حتى ليقول صاحب الذخيرة إنهم : « أبَوْا إلا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنَّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثوا على هذا صنما ، وتلوا ذلك كتاباً محكماً[1] » . وألف ابن عبد ربه الأندلسي «العقد الفريد» فلم يجمع فيه شيئاً من الآثار الأندلسية ، وإنما جمعه من الآثار المشرقية ، ويُرْوَى أن الصاحب ابن عباد اطلع عليه ، فقال عبارته المشهورة : « هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا[2] » .

وليس هناك كتاب أدبي ولا رسالة نثرية ولا ديوان ، ليس من كل ذلك عمل جيد إلا نقلوه إلى بلادهم فور ظهوره في المشرق ، ومما نقلوه في حياة أصحابه «البيان والتبيين» و«رسالة التربيع والتدوير» للجاحظ[3] وديوان أبي تمام والمتنبي وسقط الزند واللزوميات ورسائل بديع الزمان ومقاماته ومقامات الحريري .

ومنذ القرن الرابع نحس بنشاط أدبي هائل ، ويبلغ هذا النشاط أقصاه في عصر ملوك الطوائف ، إذ يجمع كل ملك حوله أكبر عدد ممكن من الأدباء والشعراء ليباهي بهم وينافس فيهم من حوله من الملوك والسلاطين . وراجت في أثناء ذلك أسواق النثر والشعر ، وتعددت هذه الأسواق ، ففي كل مدينة كبيرة سوق ، وفي كل مدينة معرض لآخر ما أحدث الكتاب والشعراء من نماذج .

وقد أخذ الكتاب يحاولون استحداث أنماط بديعة ، فألف ابن شُهيد رسالته « التوابع والزوابع » وهي رحلة للشاعر في عالم الجن ، وقد تأثر فيها تأثراً واضحاً بالمقامة الإبليسية لبديع الزمان الهمذاني ، وكلاهما كان ملهماً لأبي العلاء في رسالة الغفران . وليس هنا موضع تفصيل هذا الرأي . ولابن زيدون رسالتان : جدية وهزلية سنعرض لهما في غير هذا الموضع .

---

(١) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٢ .

(٢) معجم الأدباء لياقوت (طبعة فريد رفاعي) ٤/٢١٤ .

(٣) معجم الأدباء ١٦/١٠٤ .

ولم يتخلّف الشعراء في ميدان التفوق عن الكتّاب ، بل لعلهم بزّوهم في هذا الميدان ، إذ أسرف ملوك الطوائف في تكريمهم وبذل المكافآت والجوائز لهم ، فاستنفدوا مواهبهم في مدائحهم ، واستخرجوا من أذهانهم ومخيلاتهم درراً ثمينة وجواهر كريمة ، فنهض الشعر وازدهر إلى أقصى حد ممكن ، حتى ليظن الإنسان أن كل أهل الأندلس أصبحوا شعراء . وفعلا أصبحوا كذلك ، فياقوت يروى أنه سمع ممن لا يحصون عدّاً أن أهل شِلْب يقلّ بينهم من لا يقول شعراً حتى الفلاح منهم إذا مر به أحد وسأله عن الشعر قرض من ساعته ما اقترحه عليه[1] .

ولم تكن شلب تتقدم غيرها من المدن الأندلسية ، فهناك مدن أخرى كانت تفوقها ، وخاصة إشبيلية بلدة المعتضد بن عباد وابنه المعتمد ، فقد كانت مركز الشعر والشعراء حينئذ ، وقد تميزا جميعاً بإسرافهما في الترف واللذة . وبذلك أصبحت بلدتهما مهوى أفئدة الشعراء يهوون إليها من كل بلدة في الأندلس . وتصادف أن استولى النورمان على صقلية وخرب العرب القيروان فرحل الشعراء من هذه وتلك إلى إشبيلية حيث الجوائز السنية ، وحيث الخمر واللهو والغناء .

ومعنى ذلك أن قطبي الحركة الأدبية في المغرب وهما صقلية والقيروان سقطا ، وسقط الشعراء منهما إلى إشبيلية من أمثال ابن حمديس وأبي العرب الصقلي والحصري ، فكان ذلك سبباً ثانياً في نهضة الشعر بعاصمة بني عباد ، وجرى فيها الشعر على كل لسان ، حتى لنرى غسّالة تجيز شطراً من الشعر للمعتمد ، وكان قد سأل وزيره ابن عمار أن يجيز الشطر فأرتج عليه ، وبادرت الغسالة لتنقذه ، فأعجب بها المعتمد وتزوجها ، وهي الرميكية المشهورة ، التي تمنت في قصره لو عجنت الطين برجليها كما كانت تصنع قديماً ، فنثر لها كافوراً وعنبراً كثيراً ، وصنع لها منهما ما صبت نفسها إليه .

وهذا الجو المشبع بالترف واللهو هو الذي هيأ لظهور الموشحات ، فإن

---

(١) اقرأ مادة شلب في معجم البلدان لياقوت .

نمو الموسيقى فيه ونمو الغناء وما يلاحظ على أهل الأندلس من اتخاذ أنواع وألوان مختلفة من « الكرنفال » . كل ذلك أعدّ لسبق الأندلس غيرها من الأقاليم العربية فى فَلَكِ الشعر العربى ونظمه سموطاً سموطاً ، كأنها تريد أن تزاوج بين هذا الشعر وبين أغانيها الشعبية . ولم تلبث أن ازدهرت الموشحات فى هذا العصر : عصر ملوك الطوائف ، أو قل عصر الترف واللذة .

وبينما تشتهر قرطبة فى هذا العصر باتخاذ الناس فيها لخزائن الكتب نرى إشبيلية تشتهر باتخاذ الناس فيها لآلات اللهو والطرب ، حيث يدفع كل شىء للرقص والغناء ، وكأن أيام الناس أعياد أو كأنها « كرنفالات » . ولم يكن هذا شأن إشبيلية وحدها ، بل كان شأن غيرها أيضاً من المدن الأندلسية مثل مالقة[1] . فكان طبيعيًّا أن تونق الموشحات ، وأن يشتهر فيها نفر غير قليل مثل ابن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد ومحمد بن عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وغيرهما كثير .

وليس من شك فى أن الموشحات دليل واضح على أن الأندلس كانت تريد أن تتميز فى الشعر والفن وأن تعبر عن روعة بيئتها : روعتها العقلية والشعورية . وإنه لينبغى أن نُنَوِّهَ هنا بجهد أهلها فى شعر الطبيعة ، فقد رسموا فيه كثيراً من الألواح الحية الرائعة التى لا نبصرها حتى نأسى على هذه الينابيع التى جفت قبل الأوان .

---

(١) انظر كتابنا : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى (الطبعة العاشرة – بدار المعارف) ص ٤٥١ .

الفصل الثانى

ابن زيدون فى عصره

١ ـــ النشأة والمرْبَى

وُلِدَ أحمد بن عبدالله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٣م فى بيت من بيوت أعيانها وفقهائها ، فأبوه فقيه من سلالة بنى مخزوم القرشيين ، وجده لأمه صاحب الأحكام الوزير أبو بكر محمد[١] بن محمد بن إبراهيم ، وكلمة صاحب الأحكام تعنى أنه اشتغل بالفقه والقضاء .

فهو من بيت حَسَب ونَسَب ، وكان أبوه ثريـًّا صاحب أموال وضياع ، ويقول المؤرخون عنه إنه توفى بإلبيرة ، بالقرب من غرناطة ، فى توجهه إليها لتفقد بعض ضياعه. وحُمِلَ إلى قرطبة ، فدفن فيها ، وإلى ذلك أشار عبادة ابن ماء السماء شاعر قرطبة الكبير فى رثائه له ، فقال[٢] :

أىُّ رُكْنٍ من الرياسة هِيضا　　　وجَموم[٣] من المكارم غِيضا

حملوه من بلدة نحو أخرى　　　كى يوافوا به ثَرَاهُ الأريضا[٤]

مثل حَمْل السَّحابِ ماءً طيباً　　　ليداوى به مكاناً مريضا

وتعبير عبادة بأنه « ركن من الرياسة » يدل فى وضوح على أنه كان من

---

(١) ديوان ابن زيدون (طبعة كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة) ص ١٥٢ .

(٢) نفح الطيب (طبعة ليدن) ٢/٤٣٠ .

(٣) جموم كصبور : البئر الكثيرة الماء ، وغيض مجهول غاض : نقص وقل .

(٤) الأريض : الزكى المعجب للعين .

رؤساء الدولة الأموية في قرطبة ، ويقول ابن الأبار عنه : «كان أحد وجوه أصحاب ابن ذكوان وشيّع الخليفة سليمان ، وشُوورَ بقرطبة»[1] وسليمان هو سليمان المستعين الذى ولى الخلافة هناك من سنة ٣٩٩ إلى سنة ٤٠٧ للهجرة . وابن ذكوان هو أبو العباس أحمد بن محمد بن ذكوان قاضى القضاة بقرطبة حتى سنة ٤٠١ وكان يشاوره ويراجعه فى فتاويه وأحكامه ، كما كان مرجعَ غيره من القضاة وموضع مشورتهم .

واهتم هذا الفقيه العظيم بابنه منذ نعومة أظفاره ، فأحضر له الأدباء والمثقفين ، ووصله بالعلماء والفقهاء من أصحابه ، وكان هو نفسه أول أساتذته ، إذ كان متفنناً فى ضروب العلم ، جمّ الرواية والمعرفة باللغة والآداب . على أن تلمذته له لم تطل ، فقد توفى وابنه فى الحادية عشرة من عمره سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م .

ونظن ظناً أن ابن زيدون لزم صديق أبيه أبى العباس بن ذكوان ، وأفاد من علمه وفقهه ، فقد كان عالم قرطبة الأول فى عصره ، وامتدت حياته بعد أبيه إلى سنة ٤١٣ للهجرة . وهو غير أبى بكر بن ذكوان قاضى أبى الحزم جهور الذى رثاه ابن زيدون ، وظن غير واحد ممن كتبوا عنه أنه أستاذه ، وخلطوا بينه وبين ابن ذكوان الكبير[2] ، وإنما كان صديقه ورفيقه فى التلمذة والدراسة وتوفى سنة ٤٣٥ هـ . ومن أساتذته المهمين أبو بكر مسلم بن أحمد[3] ، وكان نحوياً أديباً متقدماً فى علم العربية واللغة ورواية الشعر وكتب الأدب ، وكان لتلاميذه كالأب الشفيق والأخ الشقيق ، مجتهداً فى تبصيرهم ، متلطفاً فى ذلك ، فأعجب به ابن زيدون ، وعكف على دروسه ومحاضراته .

ومما لا شك فيه أن عقل ابن زيدون ليس من صنع هؤلاء الثلاثة وحدهم ،

---

(١) التكملة لابن الأبار ص ٤٤٦ .

(٢) صنع ذلك كور Cour فى كتابه عن ابن زيدون ص ١٦ ونيكل Nykl فى كتابه عن الشعر الأندلسى ص ١٠٠٧ .

(٣) انظر ترجمته فى الصلة لابن بشكوال ص ٥٦٧ .

بل هو من صنع قرطبة وجامعتها الكبيرة ، وما كان يُلْقَى فيها من الدروس وضروب التعاليم ، إذ كان يختلف ، كغيره من شباب عصره ، إلى العلماء والأدباء هناك ، فينهل من معارفهم وثقافاتهم ، ويأخذ من آدابهم وعلومهم ما يشحذ به فكره ، ويصقل به لسانه ، وفى ذلك يقول مفاخراً :

ونجّذنى علمٌ توالتْ فنونُهُ كما يتوالى فى النظام سِخابُ[1]

فهو يقول إن العلم صقله بفنونه المختلفة المتسقة كما يتسق سخاب ، وتنتظم أزهاره . وفى أشعاره ورسائله لُمَعٌ كثيرة من هذا العلم ، واقرأ فى رسالتيه الهزلية والجدية ترَ سيولَ المعارف التاريخية تفيض من كل صوب ، وترَ ثقافة شاملة بالدراسات الإسلامية والفلسفية . وبجانب ذلك ترى ركاماً من أمثال وأشعار تارة يقتبسها بنصّها ، وتارة يفكها وينثرها فى أساليبه .

أما الشعر فلم يبلغ فيه ما بلغه فى رسالتيه الآنفتين من تمثيل معارفه وثقافاته ، ومع ذلك لا نزال كلما قرأنا فيه وجدنا أثر الدروس المنظمة التى تلقها فى شبابه وما حشد فى ذهنه من فنون ، فلسفة وغير فلسفة ، يقول فى بعض شعره :

كان الرِّضـا وأعيـدهُ أن يُعقِبَ الـكونَ الفسادُ

ويقول هاجياً :

عرَضْتَ لشعرى ولم تَتَّئِبْ[2] تعارضُ جـوهرَهُ بالعرَضْ

فهو يذكر الكون والفساد والجوهر والعرض مما يدل على ثقافته الفلسفية . وكانت ثقافته بالفقه والحديث واسعة ، ورثها فى بيته ، ونماها على أساتذة عصره ، ونراه يقول فى بعض مدحه :

مليكٌ يسوس الملكَ منه مُقَلَّدٌ روى عن أبيه فيه ما سنَّه الجدُّ

ويقول :

همامٌ أغرُّ رويتُ الفخـارَ حديثاً إلى سَرْوِهِ[3] مُسْنَدَا

والسنة والتقليد والحديث المسند كل ذلك معروف بين أهل الحديث والفقه ،

---

(١) نجذنى : صقلنى وهذبنى ، والسخاب : قلادة تتخذ من أزهار عطرة ليس فيها من اللؤلؤ والجوهر شىء .

(٢) تتئب : تخجل .

(٣) السرو : الشرف .

ويظهر أنه درس علم الأصول فنحن نراه يقول لصديقه أبي حفص بن بُرْد :

ودادى لك نَصٌّ لم يخالفه قياسُ

يشير بذلك إلى ماهو معروف بين علماء الأصول من تقديم نَصِّ الكتاب والسنة المتواترة على القياس العقلي في الأحكام الفقهية ، وهو يقول إن النص والقياس جميعاً يتفقان في وداده ولا يختلفان . وأكثر في شعره كما أكثر في نثره من ذكر الأمثال ، ويقول في بعض مدائحه :

أغرُّ متى تَدْرُسْ دواوينَ مجده يَرُقْنا غريبٌ مُجمَلٌ أو مصنَّف

و « الغريب المصنف » كتاب في اللغة لأبي عبيد القاسم بن سلام . وعلى هذه الشاكلة لا نزال نستقبل في شعره من حين إلى حين بعض الإشارات الثقافية . وطَبَع رسائله خاصة بهذا الطابع ، فاضطر القدماء إلى أن يعالجوها بالشرح والبيان ، حتى يقربوها للأذهان ، وحتى يزيلوا ما فيها من غموض وإبهام .

٢ — حبه لولّادة وسجنه

ليس لدينا أخبار واضحة عن ابن زيدون في أثناء الفتنة التي انتهت بسقوط الأمويين وقيام النظام الجمهوري في قرطبة وعلى رأسه أبو الحزم جهور . وكل ما يمكن أن يقال في هذا الصدد هو ضرب من الحدس والتخمين ، ويغلب على الظن أنه لم يقف مكتوف اليدين إزاء الحوادث التي مرت بها بلدته . وفي شعره ما يدل على أنه كان في حاشية أبي الحزم حين نهوضه للأمر ، ولكن لا ندرى أكان موظفاً كبيراً أم كان شاعراً يقلد صاحبه قصائده ودرره الثمينة .

والأخبار اللامعة في حياة ابن زيدون الأولى لا تطوف بحياة سياسية على العموم ، وإنما تطوف بصنمه ومعبوده ولادة بنت الخليفة المستكفي الذى كان واهناً متخلفاً ضعيفاً ، مقصراً عن خلال آبائه ، ويصفه أبو حيان مؤرخ الأندلس بأنه « كان مجبولا على الجهالة ، عاطلا من كل خلّة تدل على فضيلة..

معروفاً بالتخلف والركاكة ، مشتهراً بالشرب والبطالة ، سقيمَ السر والعلانية ، أسير الشهوة عاهرَ الخلوة[١] »

وفى بيت هذا الخليفة نَبَتَتْ ولادة ، وتدل أوصاف ابن زيدون لها على أنها كانت بيضاء البشرة ، ذات شعر أشقر[٢] ، ولعلها بنت «سَكْرَى» المورورية الجارية الشريرة التى استبدت بالمستكفى ، والتى يصفها ابن حيان بأنها كانت خبيثة[٣] .

ويظهر أن أبا ولادة عُنِيَ بها ، فأحضر لها المعلمين والمثقفين ، ولم تلبث مواهبها أن استيقظت ، فتفتحت الزهرة التى نبتت فى تلك الشجرة ، وفاح منها أريج الشعر والفن . وكأنها كانت تنتظر موت أبيها سنة ٤١٦ هـ/١٠٢٥م حتى يخلو لها الجو ، فما هى إلا عشية أو ضحاها ، حتى أصبح بيتها قِبْلَةَ الأدباء والشعراء ، يقول ابن بسام : « وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المصر ، وفناؤها ملعباً لجياد النظم والنثر ، يَعْشُو أهل الأدب إلى ضوء غُرَّتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عِشْرتها ، إلى سهولة حِجابها ، وكثرة مُنتابها »

ولم تكن تصنع ذلك بوقار ، بل كانت تخلطه بدل وعبث واستهتار ، وصور ذلك ابن بسام فقال : « على أنها – سمح الله لها وتغمد زللها – اطرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ، بقلة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ، كتبت – زعموا – على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلُحُ للمعالى ... وأمشى مِشْيَتِى وأتيه تِيها

وكتبت على الآخر :

وأُمْكِن عاشقى من صَحْنِ خدِّى ... وأعطى قُبْلَتى من يَشْتَهيها[٤] »

فكان هذا العبث فيها ، وكان جمالها ، وكان شِعرها ، وكان غناؤها

---

(١) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٢) النفح ٢/١٩٣ .

(٣) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٨٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٣٧٦ .

إذ كانت تحسن الضَّرْبَ والإيقاع على الآلات الموسيقية ، كان كل ذلك يشعُّ حولها السحر والفتنة ، فتهوى إليها أفئدة الشعراء من قرطبة وغير قرطبة ، فلا تفتأ تتصبَّاهم ، وتُشعل فى قلوبهم نار الهوى والهيام .

وكان ابن زيدون أحدَ من جذبتهم ولادة إلى فلكها ، وكان لا يزال فى ميْعة الشباب ، فلم تلبث أن وقعت فى أشراك حبه ، وبادلته هُيَاماً بهيام ، وأحسَّا كأن روحيهما تآلفتا ، بل لكأنهما احترقتا بلظى العشق والغرام ، فقادا حياة محمومة بالحب ، ليس فيها حشمة ، وإنما فيها العنف والجرأة .

ووصف ابن زيدون أول لقاء لهما ، فقال : « لما قُدِّرَ اللقاء ، وساعد القضاء ، كتبت إلىَّ :

ترقَّبْ إذا جَنَّ الظلامُ زيارتى ... فإنى رأيت الليل أكْتَمَ للسرِّ

وبى منك ما لو كان بالبدر ما بدَا ... وبالليل ما أدْجَى[1] وبالنجم لم يَسْرِ

فلما طوى النهار كافوره[2] ، ونشر الليل عنبره[3] ، أقبلتْ بقَدٍّ كالقضيب ، ورِدْف كالكثيب ، وقد أطبقت نرجس المُقل ، على ورد الخجل ، فملنا إلى روض مُدَبَّج[4] ، وظل سَجْسَج[5] ، قد قامت رايات أشجاره ، وفاضت سلاسل أنهاره ، ودرُّ الطلِّ منثور ، وجَيْبُ الرَّاح مزرور ، فلما شببنا نارها ، وأدركت فينا ثارها ، باح كل منا بحبه ، وشكا أليم ما بقلبه ، وبتنا بليلة نَجْتَنِى أقحوان الثغور ، فلما انفصلتُ عنها صباحاً ، أنشدتها ارتياحاً :

ودَّعَ الصبرَ محبٌّ ودَّعكْ ... ذائعٌ من سرِّه ما استودعكْ

يقرع السنَّ على أن لم يكن ... زاد فى تلك الخُطَى إذ شيَّعك

يا أخا البدر سناءً وسنًى ... حفظ الله زماناً أطلعك

إن يَطُلْ بعدك ليلى فلكم ... بِتُّ أشكو قِصَرَ الليل معك[6]

---

(١) جن الليل وأدجى : أظلم .

(٢) كافوره : بياضه ، والاستعارة واضحة .

(٣) عنبره : سواده .

(٤) مدبج : منقوش مزين بالأزهار والنوار .

(٥) السجسج : الهواء المعتدل .

(٦) الذخيرة ، المجلد الأول ص ٣٧٧

وتتابع مثل هذا اللقاء فى حدائق قرطبة ذات الأشجار والأزهار المعطرة بالندى ، وقضيا هناك أوقاتاً طويلة يتعاطيان كئوس الخمر ، كما يتعاطيان كئوس الحب والصبابة ، وكل منهما موله بصاحبه ، تغمره نشوة العشق . وحدث أن ألمّ بصاحبها ما جعله يفارقها إلى حين فكتبت إليه :

ألا هلْ لنا من بعد هذا التفرّق ... سبيلٌ فيشكو كل صَبٍّ بما لقى
وقد كنت أوقاتَ التزاور فى الشّتا ... أبيت على جَمْرٍ من الشوق مُحرِقِ

فأجابها بقوله :

لَحَا اللهُ يوماً لستُ فيه بملتقٍ ... مُحيّاكِ من أجل النّوَى والتفرقِ
وكيف يطيبُ العيش دون مسرّةٍ ... وأى سرورٍ للكئيب المؤرّقِ

ورجعا إلى اللقاء وتشاكي الصبابة والهوى . غير أن ولادة لم تلبث أن تبدلت له ، فتمنعت عليه ، وأذاقته بعد نعيمِ قُرْبها جحيمَ هجرها ، فكان يلاطفها ، ويدللها ، ويتمنى منها النظرة ، ويزعم لها أنه عَبْدُ حبها وأسير عشقها .

ولسنا ندرى سبب هذا التمنع إلا ما ساقه ابن بسام من أن ابن زيدون أشار إلى مغنيتها عُتْبة أن تعيد صوتاً غنته ، فغضبت ولادة غضباً يدل على حمقها وسوء خلقها ، إذ ظنت أنه يغازلها من دونها ، وسرعان ما أنشدت :

لو كنتَ تُنْصِفُ فى الهوى ما بيننا ... لم تهْوَ جاريتى ولم تتخيّرِ
وتركتَ غصناً مثمراً بجماله ... وجنحتَ للغُصْن الذى لم يثمر
ولقد علمتَ بأننى بدرُ السما ... لكنْ دُهيتُ لشقوتى بالمشترى

ويسوق صاحب النفح سبباً ثانياً للقطيعة بين العاشقين ، إذ نقد ابن زيدون بيتاً لها قالته فيه ، وهو :

سقى اللهُ أرضاً قد غدتْ لك منزلا ... بكل سكوبٍ هاطل الوَبْلِ مغدقِ

معتلا بأن النقاد لاموا ذا الرُّمّة لقوله :

ألا يا اسْلَمِى يا دارمَىّ من البِلَى ... ولا زال مُنْهَلاًّ بجَرْعائِك القَطْرُ

مع تقديم الدعاء بالسلامة . فقد زعم النقاد بأن هذا أشبه بالدعاء على

المحبوب من الدعاء له ، وإنما المستحسَن قول الشاعر :

فسقى ديارَك غير مُفسدها صَوْبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِى[1]

ولم يكن ابن زيدون لبقاً فى إيراد هذا النقد على أذن معشوقته ، فازورَّت عنه ، ولم تعد تغدو معه إلى الرياض والأشجار والأزهار ، فقد اكتفت بأزهار الهجر السامَّة . وبكى الشاعر ، وأنَّ ، ولم ينفعه بكاؤه ولا أنينه .

ويعقد الباحثون فى الأدب الأندلسى مقارنات بين حبهما وحب لآخرين ، فدوزى يقرن حبهما إلى حب الشاعر اللاتينى تيبولس Tibullus وصاحبته ديليا Delia ، ويقرن نيكل حبهما إلى حب چورج صاند وألفرد دى موسيه[2] . وردَّ كور فى كتابه عن ابن زيدون المقارنة الأولى ، وقال إن وجه المقارنة الممكن هو فى مظاهر حياة الشاعرين إذ فقد كل منهما وطنه ولم يكن موفقا فى حبه ، أما الظواهر الأدبية عندهما فمختلفة[3] .

على كل حال انصرفت ولادة عن عاشقها الشاعر الناقد الذى لم يملأ غرورها الفنى ، والذى اعتدى على سلطانها الأدبى . ولم تنتظر طويلا لتجد عاشقاً جديداً ، فقد كان العشاق كثيرين ، ولكنها اختارت من بينهم هذه المرة لا شاعراً عاطفيًّا كبيراً ، بل وزيراً خطيراً هو أبو عامر بن عبدوس . وروى ابن بسام هذا التحول إليه ، فقال إنها « مرت به وأمام داره بركة دائمة تتولد عن كثرة الأمطار ، وربما استمدت بشىء مما هنالك من الأقذار ، وقد نشر أبو عامر كمَّيْه ، ونظر فى عِطْفيه ، وحشر أعوانه إليه ، فقالت له : أبا عامر :

أنت الخصيبُ وهذه مصرُ فتدفَّقا ، فكلاكما بحرُ

فتركته لا يُحير حرفاً ، ولا يرد طرفاً » . وسرعان ما تبعها ، وتبادلا العشق والغرام ، ولم تُجْدِ ابن زيدون توسلاته لمعشوقته وتضرعاته ، وحاول أن يسعى

(١) النفح ٢/٥٦٤ .
(٢) نيكل ص ١٠٦ .
(٣) كور ص ١٣٤ .

إليها من قبل ابن عبدوس ، فكتب إليه قصيدة ينذر ويتوعد ، افتتحها بقوله :

أثرتَ هِزَبْرَ[1] الشَّرَى إذ رَبَض ... ونبَّهته إذ هَدَا فاغتمض
وما زلتَ تبسطُ مسترسلا ... إليه يَدَ البَغْي لما انقبض
حذارِ حذارِ فإن الكريمَ ... إذا سيم خَسْفاً أبى فامتعض
فإن سكوتَ الشجاع النَّهو[2] ... سِ ليس بمانعه أن يَعَض

واستمر يحذر ويعاتب ، ويلين ويعنف . ولم يستمع ابن عبدوس إلى تحذيره وعتابه ، وأيضاً لم تستمع ولادة إلى ما شكاه من آلامه وتباريح حبه ، فماذا يصنع ؟ لقد عرف أن ابن عبدوس يستخدم فى مراسلاته سيدة تزينه فى عيني صاحبته ، وأنهما يتراسلان كثيراً عن طريقها ، فكتب إلى ولادة رسالة طويلة تُعْرَفُ بالرسالة الهزلية سخر فيها على لسانها من ابن عبدوس سخرية مرة ، وتوسل إليها أن ترسلها إليه ، حتى تقطع العلائق التى نشبت ، والوشائج التى التحمت . وغضبت ولادة وحنقت عليه حنقاً شديداً ، وهجته ببيتين قبيحين ، وصفته فيهما بأوصاف خبيثة . ولم يلبث ابن عبدوس وبعض خصومه أن نسبوا إليه أنه يشترك فى مؤامرة على السلطان وتصادف أن اتهم بالاستيلاء على عقار لبعض مواليه بعد وفاته ، فوضعت فى يديه الأغلال ، وقُدِّم إلى المحاكمة .

وكان القاضى الذى تولى محاكمته هو أبو محمد عبد الله بن أحمد المعروف بابن المكوى الذى ولى قضاء قرطبة فى المحرم من سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة ، وكانت بينه وبين الشاعر موجدة قديمة ، ويقول ابن سعيد فى المغرب إنه «استخف بكثير من وجوه الناس»[3] فلما عرضت عليه قضيته أمر توًّا بسجنه وشَدَّد فيه .

وكتب الشاعر من سجنه قصائد بديعة يناشد فيها أبا الحزم جهوراً أن يعفو عنه ، وأن يرعى حرمته منه ، وأن لا يستمع إلى ما قاله الوشاة :

أَثِنْ زعم الواشون ما ليس مزْعما ... تَعَذَّرَ[4] فى نصرى وتَعَذَّرَ[5] فى خذلى

---

(١) الهزبر : الأسد .
(٢) الشجاع هنا : ضرب من الحيات ، والنهوس : العاض .
(٣) المغرب فى حلى المغرب (طبعة دار المعارف) ١/١٦٠ .
(٤) تعذر : لا تجد عذرا .
(٥) تعذر : تلتمس عذرا .

ولو أنني واقعتُ عمـداً خطيئـةً ... لما كان بدعاً من سجاياك أن تُمْلِي
فلم أستتر حربَ⁽¹⁾ «الفجار» ولم أطع ... مُسَيْلمةً⁽²⁾ إذ قال إنى من الرُّسْلِ
ومثليَ قد تَهفو به نشوةُ الصبا ... ومثلك مَنْ يعفو ومالك من مِثْلِ
وإنى لتنهانى نُهَاى عن التى ... أشاد بها الواشى ويَعْقلُنى⁽³⁾ عَقْلِى

ولم يكتف ابن زيدون بأشعاره وقصائده الطنانة، فدبج رسالة إلى أبي الحزم تشتهر باسم الرسالة الجِدِّية يستعطفه فيها ، وكأنما كان فى أذنى الوزير وَقْرٌ أو صَمَمٌ ، فذهب يقول :

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحه ... زمناً فكان السجنُ منه ثوابى
لم تُخْطِ فى أمرى الصوابَ موفقاً ... هذا جزاءُ الشاعر الكذَّاب

وتحول إلى أبى الوليد بن أبى الحزم يمدحه ، ويتخذه وسيلة إلى أبيه لعله يعفو عنه أو يصفح، ولكن ذنبه كان عظيماً، فلم تنفتح مغاليق سمع أبى الحزم، وعبثاً توسل ابن زيدون بكاتبه الكبير وصديقه ابن بُرْد ، فقد كان الجميع يرهبون أن يجرى اسمه على لسانهم . ولما انسدت أمامه جميع الأبواب صمم على الهروب من هذا الشقاء ، ففرَّ من سجنه ليلة عيد الأضحى ، وظل فى ضواحى قرطبة يضرع إلى أبى الحزم أن يغفر له ما قدَّم مستعيناً بأستاذه أبى بكر مسلم بن أحمد . وأخيراً عفا عنه أبو الحزم ، وربما كان لابنه أبى الوليد الفضل الأول فى ذلك ، إذ كان ابن زيدون صديقه ، وكان قريباً من نفسه .

وفى هذه الأثناء لم ينقطع حبه لولادة، بل ظل يذكرها ويعاتبها على ما كان من هجرها، بل من غدرها وعدم وفائها ، وبيعها لحبه بيعة بخس ووكس ، وهو يفصح عن ذلك فى لهفة وحرقة وحنين وشجى بالغ، ومن خير الأمثلة التى تصور قروحه وجروحه النفسية حينئذ قصيدته التى أرسلها إليها بعد خروجه من السجن ، ويقال إنه بعث بها إليها من إشبيلية، وفيها يقول :

بِنْتُمْ وبنا فما ابتلت جوانحُنا ... شوقاً إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا

(1) حرب الفجار : كانت فى الجاهلية بين قريش وبنى عامر ، إذ انتهك الأخيرون حرمة الحرم وقدسيته .

(2) مسيلمة : متنبىء قتل فى حرب الردة . (3) يعقلنى : يمنعنى .

٣ — في بلاط أبي الوليد بن جهور

حظي الشاعر بأمر العفو عنه ، فلزم أبا الوليد بن جهور يمدحه ، كأنه يريد أن يرد معروفه وجميله إليه، فانعقدت بينهما حبال مودة أكيدة ، وتوثقت عُرًا صداقة متينة . وكان الشاعر في أثناء ذلك يمدح أبا الحزم بالخلق المتين والسياسة الرشيدة ، والمحتد الشريف ، والرأي الحصيف :

ولم يلبث أبو الحزم أن توفي سنة ٤٣٥ هـ/١٠٤٣ م وخلفه أبو الوليد ابنه، فعينه للنظر على أهل الذمة ، ثم رفعه إلى مرتبة الوزارة، فعلا نجمه وحلق في السماء . وذهب يضفي عليه مدائحه ، ويخلع عليه قصائده ، ومن بديع شعره فيه :

مَلِكٌ لذَّ جَنَى العيشِ بـه حيث وِرْدُ الأمن للصَّادي عَلَلْ
يا بني جَهْوَرٍ الدنيـا بـكم حليتْ أيامُها بعد العطَـلْ
إنمـا دولتُـكم واسطـةٌ أهدت الحسنَ إلى عِقْدِ الدول
نحـن من نَعْمائـكم في زهرةٍ جَدَّدَتْ عهدَ الربيـع المقتبل
طاب كانونٌ لنـا أثناءهـا فـكأن الشمس حلَّتْ بالحمَلْ
زَهرتْ أخلاقُـكم فابتسمـتْ كابتسام الورد عن لؤلؤِ طَـلّ

وتفيض أشعاره في أبي الوليد بالإخلاص . وقابل أبو الوليد هذه الأشعار باتخاذه سفيراً له بينه وبين ملوك الطوائف، لعله ينسى حبه الذي كان يعرف أنه لا يزال متقداً بين جوانحه، أو لعله يتسلى عن هواه . وكان ذلك سبباً في أن اشتهر اسمه ، وكثر أصدقاؤه بين ملوك عصره وشعرائهم ، كما كثر في ديوانه تشوقه إلى قرطبة ومعاهدها وهو غريب عنها تارة في مالقة وتارة في بطليوس أو في بلنسية أو في طرطوشة ، وفيها يقول متشوقاً إلى وطنه :

غريبٌ بأقصى الشرق يشكر للصَّبا تحمّلها منه السلامَ إلى الغربِ
وما ضرَّ أنفاسَ الصَّبا في احتمالها سلامَ هَوًى يُهديه جسمٌ إلى قلب

ويدور في ديوانه شعر يتصل بهذه السفارات والرحلات ومن تعرَّف عليهم

من الملوك والوزراء ، وقد أعجب خاصة بابن عبد العزيز صاحب بلنسية ، وفيه يقول :

مهما ذممتُ فما زما ني في ذمامك بالذميمْ
زمنٌ كمألوف الرضا ع تشوق ذكراه الفطيمْ
الله يعلم أن حبـ ـبك من فؤادي في الصميمْ
ولئن تحمل عنك لى جسمٌ فعنْ قلبٍ مقيمْ

وعلى شاكلة ما يذكر ابن عبد العزيز ، ويثنى عليه ، يذكر المظفر صاحب بطليوس ، ويثنى عليه وعلى آبائه وكريم ضيافته له وحسن استقباله[1] .

ولم تنسه هذه الرحلات والسفارات حبه ، ولا شغلته عن هواه ، فهو دائم الحنين والتلهف على البعد كشأنه فى القرب ، لا يستطيع أن ينسى ، ولا أن يشغل قلبه بغير صاحبته التى نفرت منه ، وأغلقت أبوابها دونه ، وإنه ليذكرها فى كل مكان ، فيقطر قلبه عشقاً وصبوة ،وأسى وحسرة ، يقول وهو فى بطليوس :

خليلىّ لا فِطْرٌ يَسُرُّ ولا أضْحَى فما حالُ مَن أمسى مشوقاً كما أضحى
لئن شاقنى (شرقُ[2] العُقاب) فلم أزل أخصّ بممحوض الهوى ذلك السَّفْحا
وما انفك(جوفُ الرصافة)مُشْعِرِى دواعىَ ذكرى تعقبُ الأسفَ البَرْحا
وليس ذميا عهدُ (مجلسِ ناصح) فأقبلَ فى فَرْطِ الولوع به نصحا

وعلى هذا النحو لم يستطع أن يغرق فى لجج رحلاته عذاب حبه ، وألم عشقه . على أن العلاقة لم تلبث أن اضطربت بينه وبين أبى الوليد وسرعان ما رحل عنه إلى المعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ، ويحار من بحثوا ابن زيدون فى سبب رحيله عن صاحبه . ولكن فى الديوان قصيدة على رأسها هذه العبارة « وقال عند نكبة بنى ذكوان وابن حذام فى سنة ٤٤٠ هـ » وفى كتاب « المغرب فى حلى المغرب » ترجمة لأبى على حسن[3] بن محمد بن ذكوان قاضى أبى الوليد، وفيها أنه « خلّط فى مهاودة ابن عمه أحمد بن محمد بن ذكوان والرُّهَيْط الذين سعوا فى الوثوب على السلطان بقرطبة فعزله أبو الوليد فى صدر

(١) الديوان ص ٢٢٧ .
(٢) ما بين أقواس أسماء لمواضع كان يرتادها مع صاحبته .
(٣) انظر المغرب فى حلى المغرب (طبع دار المعارف) ١/ ١٦٠ .

ربيع الأول سنة أربعين وأربعمائة ، وألزمه منزله » .

فهذه النكبة التي نظمت قصيدة ابن زيدون بصددها إنما كانت ثورة على أبي الوليد ، ومن يقرأ القصيدة يستطيع أن يرى الشاعر فيها مضطرباً قلقاً ، يحاول أن يبرئ ساحته من إثم هذه الجماعة الثائرة ، حتى ليقول :

ماللمتاب الذى أحصفت[1] عقدته قد خامر القلبُ من تضييعه جزعُ

وأكبر الظن أنه قد اتضح سببُ رحيل ابن زيدون عن قرطبة ، فقد جفاه أبو الوليد بعد ثورة أصدقائه من بني ذكوان ، وأحاطت به بعضُ الشبه ، فانبرى فى قصيدته ينفيها ، ولكن ما بينه وبين صاحبه كان قد قُطع ، ففكر فى الرحيل ، وتذكّر إشبيلية وصاحبها المعتضد الذى كان يجذب الشعراء والأدباء إلى بلاطه ، فكاتب أبا عامر بن مَسْلمة القرطبي الشاعر الأديب ، الذى هاجر من قبله إليه ، وندبه ليعرض خدماته عليه ، فلما علم المعتضد برغبته فى المثول بحضرته رَحّبَ به ، لما يعلم من كياسته ومواهبه ، وأرسل فى طلبه[2] .

٤ — فى بلاط بنى عباد

خرج ابن زيدون من قرطبة بعد أن ضاق بها وبعد أن أصبحت فى عينيه كأنها القبو المظلم ، فقد انطفأ المصباح الأخير فى القَبْو ، مصباح أبي الوليد بن جهور ، ولم يعد يرى إلا ظلمات بعضها فوق بعض . فتلمس الهروب ، وتلمس الطريق ، وبينما هو كذلك لمح نور المعتضد من بعيد ، فتسلل مسرعاً إليه ، قاطعاً المفاوز والمراحل . وعلم المعتضد بقدومه ، فتلقاه فى وزرائه وأعيان بلده وقضاته وشعرائه ، واحتفل به احتفالا رائعاً ، وأفاض عليه الخلع السوابغ وألقى إليه بمقاليد وزارته ، وضم إليه جميع أمور دولته ، وكأنه رأى فى تحوله إليه تحول قرطبة كلها إلى سلطانه .

ونزل ابن زيدون فى بيت صديقه أبي عامر بن مسلمة ، وكان مشغوفاً بالرّاح ، مثل أميره المعتضد ، وله ألف كتاباً فيها سماه « حديقة الارتياح فى

---

(١) أحصفت : أحكمت .

(٢) انظر فى ذلك الذخيرة ، المجلد الأول ، ص ٣٣٨ وما بعدها .

وصف حقيقة الراح » وأترع لابن زيدون كئوسه منها ، ونظما معاً مقطعات مختلفة فيها ، من مثل قول ابن زيدون مخاطباً له :

أدِرْها فقد حَسُنَ المجلسُ وقد آن أن تُتْرَعَ الأكْؤُسُ
ولا بأس إن كان ولّى الربيعُ إذا لم تجد فَقْدَهُ الأنفسُ
فإن خلال أبي عامرٍ بها يَحْضُرُ الوَرْدُ والنرجس

ولم يستطع ابن زيدون أن يجارى صاحبه ، فابتعد عنه ، وكان ذلك سبباً لتلاوم نشب بينهما ، غير أن ابن زيدون اعتذر لصديقه بأن معاقرة العُقار تضرّه ، وأن الخمر تبرح به ، وذكر أنه لا ينسى له نعيم عيشه عنده وساعات لهوه[1]

وتبوّأ مجلسه ووزارته بالقرب من المعتضد ، ولزم خومته واتصل بسياسته ، وصدر عن قوسه فيما يُحِلُ ويُبرم ، ويعقد ويعزم ، ناثراً فوق تاجه درر شعره وأزهار فنه ، وربما كانت قصيدته الفائية فيه خير مدائحه جميعاً ، وفيها يقول :

همامٌ يَزِينُ الدهرَ منه وأهلَه مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ متفلسفُ
يتيه بمَرْقاه سريرٌ ومنبرٌ ويحمد مسعاه حسامٌ ومصحفُ
مُمَرُّ القُوَى[2] لا يملأ الخطبُ صدره وليس لأمرٍ فائتٍ يتلهّفُ
جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وقودُه وجنّةُ عَدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ

ولم يترك مناسبة عيد ولا غير عيد إلا انتهز الفرصة لمدح المعتضد وبيان سياسته الحصيفة وحروبه المظفرة على خصومه ، وتصادف أن كان المعتضد سعيد الطالع فى وقائعه وغزواته ، فأكثر من تهنئته ونثر الرياحين أمام مقدمه.

وما زال فى المكان الرفيع منه حتى توفى المعتضد سنة ٤٦١ للهجرة ، وخلفه ابنه المعتمد ، فحاول حساده أن يبعدوه عنه ، ولكنه انتصر عليهم ، إذ قربه منه المعتمد ، بل رفعه إلى الذروة من مشورته ووزارته . ولما حاول غزو قرطبة مسقط رأسه كان جل اعتماده عليه .

وسارت حياة ابن زيدون فى عهد المعتمد سيرة كلها مسرة وهناءة ، فليس

---

(١) النفح ٢/١٨٦ .

(٢) ممر القوى : مستحكم القوى مكتملها .

هناك ما يكدر صفاء عيشه إلا بعض أمراض تطوف به ، أما ماعدا ذلك فكان كله لحظات لهو وطرب ، ويكفى أنه كان فى إشبيلية ، بلدة الخمر والموسيقى والغناء ، وأنه كان فى بلاط المعتمد الذى اجتمعت فى قصوره زينة الدنيا ومباهجها ، حتى لكأن حياته ، سوى أيام حربه ، انتظمت حفلات ، وكأن لياليه اتسقت « كرنفالات » وفى الديوان مقطوعة يشوّقه ابن زيدون فيها إلى تعاطى الحميا فى قصريه « المبارك والثريا » .

وطبيعى أن يسوق المعتمد ووزيره ابن زيدون ووزراؤه الآخرون وكل من اتصل بهم وعاش معهم فى بلدتهم حياة لاهية ، فقد دانت لهم دنيا الأندلس ، وأصبح المعتمد كبير ملوكها ، يحكم أكثر مدنها وبلدانها . ولكن الوشاة والحساد لا يزالون يلاحقون ابن زيدون ، وينفسون عليه مكانته وحظوته من المعتمد ، فبينما هو معه فى قرطبة ثارت العامة على اليهود فى إشبيلية ، فأشار منافسوه ، وخاصة ابن عمار وابن مرتين ، على المعتمد أن يرسل ابن زيدون لتهدئة الثورة . وكانت السن قد تقدمت به ، وكان يشعر بمرض أخذ يلم بجسمه الواهن الضعيف ؛ ولكنه خضع لأمر المعتمد ، ولم يكد يصل إلى إشبيلية ، حتى ثقل عليه مرضه ، وسرعان ما لبّى نداء ربه فى الخامس عشر من رجب سنة ٤٦٣ للهجرة .

ولم يغفل ابن زيدون فى هذه الحقبة الأخيرة من حياته عن ذكر معشوقته القديمة ، بل كان دائم الوله بها ، فروحها هى التى يناجيها فى مطالع قصائده للمعتضد والمعتمد ، وكان يخصها بكثير من المقطوعات ينظمها من حين إلى حين ، وكان لا يزال يذكر ليلتها الأولى معه ، فقد بات بإحدى جنّات إشبيلية ، فقال :

وليلٍ أدَمْنا فيه شُرْبَ مدامــــةٍ	إلى أن بدا للصبح فى الليــــل تأثيرُ
وجاءت نجومُ الصبح تضرب فى الدجى	فولّتْ نجومُ الليلِ والليلُ مقهورُ
فحُزْنا من اللذات أطيبَ طيبهـــا	ولم يَعْرُنا همٌّ ولا عاق تكديـــرُ
خلا أنه لو طـــال دامتْ مسرتى	ولكنْ ليالى الوَصْلِ فيهن تقصيرُ

فذكرى لياليها دائماً كانت فى ذهنه ، وكان اسمها دائماً على لسانه ، وكان لا يزال يَرِنُّ فى سمعه ، كما كان محيا وجهها لا يزال يتراءى له فى يقظته وفى أحلامه ، وما زال وفيًّا لعهدها ، بارًّا بحبها ، حتى قرع القضاء بابه ، ولفظ أنفاسه .

الفصل الثالث

جوانب ابن زيدون

١ — ديوانه

لابن زيدون ديوان كبير ، نشره الأستاذان كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة ، وهو يجرى على النمط المعروف لدواوين الشعر العربى ، من حيث الإيجاز فى تقديم القصائد ، وعدم ذكر الظروف المختلفة التى نُظمت فيها ، ولا ريب فى أن هذا يقيم شبكة من الصعوبات فى دراسة الشاعر وشعره .

وقد تعاقبت القصائد بدون نظام ، فلم يُراعَ فيها أى ترتيب تاريخى ، وهذا عيب من عيوب الدواوين العربية أيضاً ، وكأن الشعراء لم يُعنوا بأن يعرضوا على قرائهم المراحل التاريخية لشعرهم ، إنما عنوا بأن يعرضوا خير ما نظموه وأجمل ما تغنّوا به ، فضاع تاريخهم الفنى فى غمار ما طلبوه من المجد الأدبى .

ومن هنا كانت دواوين الشعر العربى قلما تصور المحاولات الأولى التى حاولها الشاعر ، وهو يُمرن نفسه للدخول فى هذا الميدان : ميدان صناعته ، وكأنه رأى فيها قصوراً يهبط به عن الأفق الأعلى الذى يريد أن يحلّق فيه بين زملائه المعاصرين والسابقين ، فنفاها فى أكثر الأحوال من ديوانه ؛ ولم يُثبت منها إلا ما قد يدل على مستوى براعته المبكرة .

وهذا هو السبب فى أننا إذا قرأنا لشاعر ديوانه لم نجد شعره يختلف من حيث الجودة والرداءة ، فالغالب المعتاد أن نجده يَطّرِدُ فى مُستوى فنى واحد ؛ لأنه فى حقيقة الأمر منتخبات روعى فيها أن تعبر أقوى تعبير عن مدى إحسانه وتفوقه فى فنه .

وديوان ابن زيدون لا يَشِذ على هذه الأصول المألوفة فى دواوين الشعر العربى ، فليس فيه ما يدل على الظروف التى أنشأ فيها هذه القصيدة أو تلك ،

إلا ما قد يقال عرضاً من أنها قيلت فى فلان . وبعد ذلك لا نجد إشارة دالة على تاريخ القصيدة ، كما لا نجد أى بيان عن تناول ابن زيدون لصناعته ، وكيف بدأ عمله فيها ، وكيف تقدم فى هذا العمل ، فإن الديوان وكتب الأدب الأندلسية لم تحتفظ بتجربة من تجاربه الأولى سوى مقطوعة واحدة زعم بعض[1] الرواة أنه ألفها فى صباه ، إذ يقول :

أخذتُ ثلثَ الهوى غصباً ولى ثُلُثٌ ... وللمحبين فيما بينهم ثُلُثٌ

تالله لو حلف العشاق أنهمُ ... موتى من الوجد يوم البين ما حنثوا

قومٌ إذا هجروا من بعد ما وصلوا ... ماتوا فإن عاد من يهوونه بعثوا

ترى المحبين صرعى فى عراصهمُ ... كفتية الكهف ما يدرون ما لبثوا

وواضح أن هذه المقطوعة ليست أولى تجاربه الفنية ، بل هى ثمرة تجارب كثيرة تقدمتها قبل أن يصل إلى صنعها . وقد يكون الشىء المهم الذى تشير إليه روايتها ، هو أنه بدأ حياته الأدبية شاعرَ حُبٍّ وصبابة .

ومن يرجع إلى ديوانه يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أن الموضوعات الأساسية التى تتوزع شعره هى الغزل ، والمديح ويدخل فيه ضرب من الاستعطاف . ويقع الغزل فى أعلى الصفحات من حيث التاريخ والزمن الذى كان الشاعر ينظم فيه شعره ، لا لما توحى به الرواية فى مقطوعة الغزل السابقة فحسب ، بل لأن مدائحه التى تشغل أكثر الصحف فى ديوانه ليس بينها واحدة تسبق عصر أبى الحزم جهور . ونفس مدائحه لأبى الحزم إنما تبدأ مع سجنه . فإذا عرفنا أن القاضى الذى سجنه ، وهو ابن المكوى ، تولى القضاء سنة ٤٣٢ للهجرة كان معنى ذلك أن مدائحه فى أبى الحزم لا تسبق هذا التاريخ . حقاً فى الديوان إشارة إلى أنه كان يمدحه قبل سجنه[2] ، ولكن الديوان لم يحتفظ بشىء يوضح هذا المديح توضيحاً كافياً .

وإذن فشعر المديح المنثور فى الديوان متأخر عن شعر الغزل ، ومثله شعر الاستعطاف ، لسبب بسيط ، وهو أنه نظمه أثناء

---

(١) انظر المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى (نشر دوزى) ص ٧٦ .

(٢) الديوان ص ٦٠ .

سجنه ، فطبيعى أن يتأخر هو أيضاً . ونحن نعرف أن سجنه كان أثراً من آثار انصراف ولادة عنه إلى ابن عبدوس ، فبديهى أن يكون حبه لها وشعره فيها سابقاً لشعر المديح والاستعطاف المبثوث فى الديوان، ما دام هذا الشعر مرتبطاً بالسجن، لا يتقدمه ولا يسبقه .

وليس بين أيدينا ما يدل دلالة قاطعة على السنة التى التهب فيها هذا الحب ، ولكن من المؤكد أنه لم يسبق وفاة المستكفى (٤١٤ — ٤١٦ هـ) ففتاته لم تفتح أبوابها للشعراء والأدباء إلا بعد زوال دولته ، بل نظن ظنا أنها لم تفتح هذه الأبواب إلا بعد سقوط الدولة الأموية سنة ٤٢٣ هـ .

ومعنى ذلك أننا نرجح أن يكون حب ابن زيدون لولادة تأخر إلى عصر أبى الحزم جهور ، حين هدأت قرطبة وهدأت ثورات البربر ، وسكن الناس إلى حياة فيها هدوء ودعة ، وفيها أمن واطمئنان،وفيها ما يكفل الفُرَص لالتقاء العشاق فى القصور وبين الرياض .

ومهما يكن فشعر الحب عند ابن زيدون هو أقدم ضروب الشعر التى فى ديوانه ، ومن الممكن أن تُعرف أطوارُ هذا الشعر والمراحل التى تنقَّل فيها ، لأنهما تحابا ، ثم وقعت بينهما الجفوة ، أو بعبارة أدق جفَتْ ولادة عاشقها ، وانصرفت عنه . فمن الوجهة النفسية اختلف موقفه ، إذ كان ينعم بالحب وأصبح يَغَصُّ بالهجر ، فلا بد أن يختلف شعره ، كما تختلف النغمة المفرحة من النغمة المحزنة . ونحن نستطيع أن نضع فى الدور الأول كل المقطوعات التى لا تعبر عن تباريح الهجر ولا عن عذاب الصدود ، إنما هى أنفاس الحب الحارة تتحول شعراً على نحو ما نرى فى قوله :

وشادنٍ أســألـه قهــوةً ... فجــادَ بالقهــوة والوَرْدِ
فبتُّ أُسْقَى الراح من ريقه ... وأجْتَنِى الورد من الخَــدِّ

وقوله :

يا مخجلَ الغُصُنِ الفَيْنانِ إن خطرا ... وفاضحَ الرَّشأِ الوسنان إن نظرا
ما كان حُبُّك إلا فتنةً قُدِرَتْ ... هل يستطيع الفتى أن يدفع القدرا

وقوله :

لقد رَأتْكِ الأماني رضاً فلم تتعــدَّكْ
يا ليت مالكِ عندي من الهوى لىَ عندكْ
فطــال ليلكِ بعــدى كطول ليــلىَ بعدك
الدهــرُ عبدىَ لمــا أصبحتُ فى الحب عبدكْ

وقوله :

لعمرى لئن قلَّت إليكِ رســائلى لأنت الذى نفسى عليه تذوبُ
فلا تحسبوا أنى تبدَّلتُ غــيركم ولا أن قلبى من هواك يتــوبُ

وقوله :

لئن كنتَ فى السن تِربَ الهلالِ لقد فُقْتَ فى الحسن بدْرَ الكمالِ
لقــد بلَّغَتْنى دواعى هــواك إلى غايــةٍ ما جرتْ لى ببــال
فقل للهوى يَجْرِ مِــلْءَ العنان فميــدان قلبى رحيبُ المجال

وقوله :

هل لداعيــك مُجيبُ أم لشاكيك طبيبُ
يا قريبــاً حين يَنأى حاضراً حــين يغيبُ
كيــف يَسلوك محبٌّ زانــه منــك حبيبُ
إنمــا أنت نَســيمٌ تتلقــاه القــلوبُ

فهذه وما يماثلها فى ديوانه مقطوعات نظمها وهو يرتشف رحيق السعادة من حُبه ، وتنعم عيناه بحبيبته ووصلها وقُرْبها .

وتأتى وراءها أشعار أخرى فى الحب ليس فيها هناءةٌ ولا نَشوة ، وإنما فيها الحرقة واللوعة ، وفيها الشكوى من الوشاة وهجر الحبيب بعد الوصال ، والدنيا مظلمة من حول العاشق وعيناه مغرورقتان بالدموع ، على شاكلة قوله :

أرخصتِني من بعدما أغليْتِني وحطَطتِني ولطالما أعليتِني
كنتِ المنى فأذقتِنى غُصص الأذى يا ليتنى ما فهتُ فيكِ بِليْتنى

وقوله :

يا غـــزالاً أصـــارنى ... موثقـــاً فى يد المحَن
إننى مــــذ هجـــرتَنى ... لم أذُق لذة الوَسَن
ليت حظى إشـــارةٌ ... منك أو لحظةٌ عَنْ(١)
ليس لى عنك مذهبٌ ... فكما شئتَ لى فـــكن

وقوله :

أيوحشنى الزمانُ وأنتِ أنسى ... ويُظلمُ لى النهارُ وأنتِ شمسى
وأغرِسُ فى محبتـــك الأمانى ... فأجْنى الموتَ من ثمرات غرسى
لقد جازيتِ غَدْراً عن وفائى ... وبعت مودتى ظُلماً ببخس
ولو أن الزمانَ أطاع حكمى ... فديتُك من مكارهه بنفسى

وقوله :

كم ذا أريد ولا أرادُ ... يا سُوءَ ما لقِىَ الفؤادُ
أصفِى الودادَ مدللاً ... لم يَصفُ لى منه الودادُ
يَقضى عـــلىَّ دَلالُه ... فى كل حين أو يكادُ
كيف السلوُّ عن الذى ... مثواهُ من قلبى السوادُ
ملك القلـــوبَ بحسنه ... فلها إذا أمرَ انقيـــادُ
يا هاجرى كم أستفيـ ... ـدُ الصبر عنك فلا أفادُ
أفلا رثيتَ لمن يبيـ ... ـتُ وحشوُ مقلته السهادُ
إن أجنِ ذنبـــاً فى الهوى ... خطأً فقد يَكبُو الجوادُ
كان الرضـــا وأعيذُهُ ... أن يُعقبَ الكونَ الفسادُ

فالدنيا عابسة من حوله ، وكبده تتفتت حسرة ، وقلبه يتقطع ألماً ، وكأنما أغمدتْ فيه خنجراً ؛ وهو ينادى بأعلى صوته ولا من سميع ، ويجأر بالدعاء ولا من مجيب . ويظل كاسفاً مقهوراً وعاشقاً محزوناً ، ويدخل السجن ، وتشتد

---

(١) عن : عارضة .

به تباريح حبه ، وتشتد الغياهب والظلمات من حوله ، ويستمر يشجينا بِشَدْوِه باثًا لواعج عشقه .

وواضح أن هذه الصورة من غزله تباين الصورة الأولى ، فقد فرت منه السعادة التي كان ينشدها ولم يعد له منها إلا عذاب السجن والألم والفراغ ، فقد هامت صاحبته بابن عبدوس ، وسدت منافذ سمعها أمام شعره ، فلم تعد تنفعه تعاويذه وتمائمه .

وخرج من السجن ، وهو يكاد يموت كمدا ، فالعاشقة قد طارت عن عُشّ غرامها إلى الأبد، وأصبح من المستحيل أن تعود إليه ، ومع ذلك أمسك بقيثارته ، وتغنى عليها ألحاناً شجية اعتصر فيها قلبه وفؤاده. وأشفق عليه أبو الوليد ابن جهور ، فقد ألقى إليه بمقاليد دولته ، وجعله وزيراً ومستشاراً له ، ولا تزال العبرات فى عينيه ، فعيّنه سفيراً بينه وبين ملوك الطوائف لعله يتعزى أو يتسلى ، ولكن الحنين كان يعاوده من حين إلى حين ، فكان يفزع إلى قيثارته يبكى معاهد قرطبة ، وهو إنما يبكى حبه الداثر ، وحظه العاثر .

وعلى هذه الشاكلة يمكن أن يوزع شعر الحب عند ابن زيدون على أدوار ثلاثة : دور وصْله ودور هَجْره ودور يأسه أو دور الذكرى ، وينتظم فى الدور الأخير مقدمات مدائحه ، ويغلب فيها أن يجعل صاحبته محصنة منيعة ، تحميها الرماح والسيوف ، فلا يستطيع أحد الدنوّ منها ولا القرب من دارها ، إلا أن تزهق نفسه ويُستباح دمه .

وإذا كان من الممكن أن يوزع غزله على أدوار ثلاثة فى هذه الصورة التى رسمناها ، فمدائحه تتوزعها أيضاً أدوار ثلاثة تقابلها ، فقد بدأ مدائحه فى السجن ، يرسل بها إلى أبى الحزم مستعتباً مستعطفاً كما يرسل بها إلى ابنه أبى الوليد وهذا هو الدور الأول من مدائحه ، وهى تأخذ شكل استعطاف واسع . ويمكن أن تلحق بهذا الدور الفترةُ التى قضاها بعد فراره من سجنه وقبل استصدار العفو عنه ، كما تلحق به قصيدتاه لأبى حفص بن برد وأستاذه أبى بكر مسلم ابن أحمد. وتُرَدُّ حرية الشاعر إليه، وما يلبث أبو الحزم أن يتوفّى ويخلفه ابنه أبو الوليد ، فيقرِّب الشاعر منه ، ويجعل له النظر على أهل الذمة ، ولا يزال

يترقى به ، حتى يُسلم إليه مقاليد دولته . وفى هذه الحقبة يبدأ الدور الثانى من مدائحه ، إذ يمدح أبا الوليد مدحاً فيه إخلاص ، ولعلنا لا نُبْعِدُ إذا قلنا إن قصيدته الكافية :

ما للمُدام تُديرها عيناكِ فيميلُ فى سكرِ الصِّبا عِطْفاكِ

هى أولى قصائده التى مدحه بها بعد اعتلائه عرش قرطبة ، ففيها فرحة الصديق بصديقه ، الذى سيحقق له آماله . وعيَّنه أبو الوليد على أهل الذمة ، وكأن هذه الوظيفة كانت دون ما يصبو إليه ، فكتب قصيدة يمكن أن نسميها « ملتمس الوزارة » وفيها يقول :

فدِيتك إنى قائلٌ فمعرِّضٌ بأوطار نفسٍ منك لم تقْضِها بعدُ
مُنًى كالشَّجا[1] دون اللَّهاة تعرَّضَتْ فلم يكُ للمصدور من نفْثِها بُدُّ
لعمرك ما للمال أسعى فإنما يرى المال أسنى حظه الطَّبعُ[2] الوغْدُ
ولكن للحالِ إن لبستُ جمالها كسوتك ثوبَ النصح أعلامُه الحمدُ

وأناله أبو الوليد أمنيته ، ولقبه « ذا الوزارتين » وندبه للسفارة بينه وبين ملوك الطوائف ، فكان يمدحهم ويثنى عليهم ، ويذكر لهم حسن استقبالهم وجميل ضيافتهم .

ولا يزال فى هذا الدور الثانى من مدائحه ، حتى توجه إليه تهمة الاشتراك فى مؤامرة بنى ذكوان على السلطان ، ولا تثبت إدانته ، ولكن تقوم جفوة بينه وبين أبى الوليد ، فيولى وجهه نحو إشبيلية . وهناك يبدأ الدور الثالث من مدائحه التى جعلها خالصة للمعتضد وابنه المعتمد .

ومعنى هذا كله أن ترتيب المدائح فى الديوان يمكن أن يُعالج فى يُسْر وسهولة . وفى الديوان قصائد ومقطوعات تتصل بأهل قرطبة ، بعضها يمكن أن يلحق بالدور الأول من المدائح ، أو قل بالاستعطاف كشعره فى ابن عبدوس وجده لأمه الوزير محمد بن محمد بن إبراهيم ، وبعضها يمكن أن يلحق بالدور الثانى كشعره فى بنى ذكوان ، ويدخل فى هذا الدور شعره فى ملوك الطوائف ووزرائهم ،

---

(١) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .

(٢) الطبع : اللئيم .

وكل ما نظمه فى طرطوشة أو بَطليوْس أو بلنسية . أما شعره فى بعض أهل إشبيلية من مثل أبى عامر بن مَسلمة وأبى بكر بن القصيرة فيلحق بالدور الثالث من مدائحه .

على أنه ينبغى أن نشير إلى أن فى الديوان مسمّطين ، ومقطوعات خفيفة من الألغاز والأحاجى ، وكان المعتمد يجاوبه ويحاوره فاكَّا لألغازه ومعمياته ، وكأنها كانت حيَلا يصنعها ابن زيدون لغرض التسلية وقتل الوقت .

٢ — شاعريته

يقع ابن زيدون فى الذروة بين شعراء الأندلس من حيث ملكات التعبير الأدبى وما صاحبها من إبداع فنى ، وقد أشاد به كل من تحدثوا عنه أو ترجموا له من السابقين ، وخاصة ابن بسام فى الذخيرة إذ يقول : « له شعر ليس للسحر بيانه ، ولا للنجوم الزُّهْر اقترانه » . وقد تعاقب الكتّاب والمؤرخون يُثنون على جمال ديباجته ورونق أساليبه ، فالجميع مشدوه لروعة نظمه وشدة أسره . ونحن لا نرجع إلى ديوانه ونقرأ القصيدة الأولى فيه التى وَجَّه بها إلى أبى حفص بن بُرد من سجنه حتى يفجأنا هذا النسج البديع :

ما على ظـنّىَ باسُ ... يجـرح الدهرُ وَياسو
ربمـا أشرفَ بالمـرْ ... ء على الآمال يَاسُ
ولقد ينجيك إغفـا ... لٌ ويُرْديك احـتراس
والمحـاذيرُ سهـامٌ ... وَالمقـادير قيـاسُ
ولـكم أجْدَى قعـودٌ ... ولـكم أكْدَى التماس
وكذا الدهرُ إذا مـا ... عزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ

ومن هذه النغمة الأولى الصافية النقية تنصب بقية النغمات فى الديوان ، فليس فى موسيقاه وألحانه أى شائبة ، إنما فيهما الخفة والرشاقة ، ولذلك كانوا

يشبهونه بالبحترى ، بل كانوا يسمونه بحترىّ المغرب لسلاسة شعره وانسيابه كأنه الماء العذب السلسبيل .

وليس من شك فى أن هذا يدل على أنه طَبَّعَ فنَّه بالطوابع العربية الأصيلة ، فقد أخذ نفسه على ما يظهر بثقافة واسعة للشعر الذى سبقه من العصر الجاهلى إلى عصره ، ولم يدخر وسعاً فى قراءة دواوينه والوقوف على أسراره ، وكأنه كان يشعر شعوراً قوياً بأن الشعر ينبغى أن لا ينفصل قديمه عن حديثه ، ففزع إلى جداوله المختلفة ينهل منها ويعبّ ، محتذياً بأمثلة سابقيه ، غير خارج ولا ثائر على قواعدهم وقوالبهم الفنية المرسومة .

ولم يلبث أن نفذ إلى موسيقاه الرائعة ، وكأنما حفزه ما قرأه لكبار الشعراء أمثال البحترى وأبى نواس وأبى تمام وابن المعتز والمتنبى وأبى العلاء إلى أن تكون له موسيقاه ، ويكون له عزفه وإيقاعه وتكون له قوالبه الحية الجذابة .

وطبيعى لهذا الشاعر الذى اختبر أوتار القيثارة العربية أدق اختبار ، واستمع إلى شدوها ونغماتها أرهف استماع ، أن يشتد تأثره بمن سبقوه ، وأن يستعير منهم فى الحين بعد الحين ، وخاصة أن هذا الصنيع كان ضريبة مفروضة على الشعراء الذين تقدموه جميعاً لا عند المغمورين منهم ، بل عند أفذاذهم ممن سميناهم .

فإذا خلف من بعدهم ابن زيدون ، وجرى على رسمهم ، وعكف على نماذجهم ، واحتذى أمثلتهم ، لم يكن خارجاً على العرف الشائع ، بل كان مطرداً مع سياق صناعته وأسلوبها الذى اصطلح عليه الشعراء عامة .

ووقف ابن بسام طويلا عند هذا الجانب من شعره ، فكاد لا يترك بيتاً له التقط معناه أو لفظه من شعر غيره إلا نبَّه عليه . وهو فى العادة يعرض القصيدة الجيدة من قصائده ، ثم يعود إليها بالتصفح ، فكلما وجد معنى أو لفظاً مشتركاً بينه وبين من سبقوه دلّ على موضع أخذه وموطن استعارته . فمن ذلك قصيدته الفائية التى مدح بها المعتضد صاحب إشبيلية ، وهى أجمل وأروع مدائحه جميعاً ، فقد وقف فى نسيبها عند هذين البيتين :

وما وَلَعي بالرّاح إلا توهمٌ لظَلْمٍ (١) به كالرّاح لو يُتَرشّفُ
ويُذكرني العِقْدَ المرِنَّ جُمانُه مُرِنّاتُ وُرْقٍ في ذُرَى الأيْكِ تهتفُ

فلاحظ أنه قلب في البيت الأول قول المتنبي :

وما شَرَقي بالماء إلا تذكُّراً لماءٍ به أهلُ الحبيب نُزولُ

أما البيت الثاني فنسخ فيه قول أبي تمام :

وبالحَلْيِ إن قامتْ ترنّم فوقها حماماً إذا لاقى حماماً ترنّما

واستمر فوقف في المديح عند هذه الأبيات الثلاثة :

طلاقةُ وَجهٍ في مَضاء كمثل ما يروق فِرِنْدُ السيف والحدُّ مرهفُ
ولما حضرنا الإذْنَ والدهرُ خادمٌ تشير فيُمضي والقضاء مصرِّفُ
وصَلنا فقبَّلنا الندى منك في يَدٍ بها يُتلَفُ المالُ الجسيم ويُخلفُ

ولاحظ أنه استعار البيت الأول من قول البحتري :

ويحسُنُ دَلُّها والموت فيه كما يستحسنُ السيفُ الصقيلُ

كما استعار البيتين الثاني والثالث من قوله أيضاً في الهيبة :

ولما حضرنا سُدَّة الإذْن أخّرَتْ رجالٌ عن الباب الذي أنا داخله
فأفضيتُ من قربٍ إلى ذي مهابةٍ أقابلُ بَدرَ التمّ حين أقابله
ولما تأملتُ الطلاقةَ وانثنى إليّ ببشرٍ آنستني مخايله
دنوتُ فقبلتُ الندى من يدامرئٍ كريمٍ محياهُ سِباطٍ (٢) أنامله

وهذه الاستعارات كلها تدل على أن ابن زيدون لم يكن ينقل عن سابقيه « طبق الأصل » بل كان يتصرف تصرفاً على هيئات وصور مختلفة . وهذا من حقه هو وغيره من الشعراء إذ يتعاورون على موضوعات ومعاني مشتركة ، فلا بأس أن يُفيد كل منهم من سابقيه ، وأن يحتذى في بعض شعره على مثال موروث ، ما دام يحسن عَرضه ، وما دام يخرج عن القالب القديم إلى قالب

---

(١) الظلم : بريق الأسنان .
(٢) سباط : جمع سبط : نقيض الجعد . ويقال سبط اليدين والبنان : كريم .

له جديد ، إذ تصبح المعانى كالعُمْلة تتفق فى المعدن ، وتختلف فى طريقة الضرب وهيئة الصورة بين بلد وبلد وقطر وقطر .

وكان ابن زيدون يحسن ضَرْبَ الخواطر والمعانى القديمة أو الموروثة فى عُمْلة أندلسية جديدة ، فيها جمال الفن وبهجة الشعر ، وما يُفصح عن أصالته وشخصيته ، ونفس القصيدة التى تنتسب إليها أبياته السابقة من أبدع ما نظمه شعراء الأندلس فى عصورهم المختلفة . ويستطيع القارىء أن يعود إليها فى النماذج المنتخبة ليرى أنها مثل رفيع من أمثلة النَّسْج المتماسك والسبك الرائع . ولن يضيره بحال أن يكون قد استعار فيها معنيين أو ثلاثة أو أربعة من غيره ، فذلك شأن الشعراء جميعاً من قبله ، إذ يردد كل منهم قول عنترة الشاعر الجاهلى المشهور « هل غادر الشعراء من مُتردَّمِ » .

ولعلنا لا نبعد إذا قلنا إن هذا الصنيع الذى استمر بين أصحاب الشعر العربى مهما غرّبوا أو شرّقوا كان أهم الأسباب فى المحافظة على إطاره العام ، فقد ظل امتداداً لماض بعيد وتعبيراً عن حاضر قريب ؛ وظل الشعراء يجمعون جذاذاته الفنية الموروثة ، ويعيدون صنعها ، مضيفين ما يعبر عن مواهبهم وأخيلتهم واستجابتهم للحياة التى تجرى تحت أعينهم . والمسألة فى رأينا كانت مسألة حِسٍّ دقيق للعرب بالماضى ، وهو حس نجده فى الآداب جميعاً ؛ حس يصل بين الأجيال السابقة واللاحقة فى الأمة ، وهو حس لا يفصلها من حاضرها ، بل يؤكد الحاضر فيها ، ويساعدها على أن تتمثله تمثلاواضحاً ، وأيضاً فإنه يُعفى الشعراء مما قد يصيبهم من مَلل إذ يتحول خيالهم إلى الماضى يُفيدون منه موارد جديدة .

على كل حال يصور لنا ابن زيدون فى شعره هذه الروح العربية العامة التى تتمسك بالماضى والتقاليد الموروثة ، وكأنما كانت هناك إبر مغناطيسية تجذب شعراء العرب بعضهم إلى بعض ، فتتشابه أساليبهم ، ويتشابه إطارها ، ولكن دون إخلال بتعبير كل منهم عن شخصيته ونفسيته وحوادثه الشعورية الخاصة .

وابن زيدون من خير النماذج التى تكشف لنا المنزعين ، فهو لا يخرج فى شعره على القواعد الموروثة ، وفى الوقت نفسه ينبض شعره بحياة عصره وما كان

فيه من حضارة وترف باذخ وإغراق فى الحس والخمر واللذة ، فاتصاله بالماضى لم يَحُل بينه وبين تصوير الحاضر الذى عاش فيه .

أما نفسه وأما حبه فقد أودعهما شعره ، ومثّلهما فى صورة تخفق بالحياة ، إذ لم يصدر فيها عن تجربة كاذبة ، بل صدر عن تجربة صادقة ضغطت على شعوره وقلبه ، ولم تلبث أن حَطمت فؤاده حَطْما ، فقد انصرفت صاحبته عنه ، وأفلتت منه . أما هو فلم ينصرف بل ظل تتبعها نفسه ، وظلت كل خالجة من خوالجه تهفو إليها ، ولم يكن أمامه إلا قيثارته ، فذهب يلحن عليها شجونه وحنينه الدائب المستعر ، فى لهفة ولوعة شديدة لعل من أروع ما يمثلها قصيدته :

أضحى التّنائى بديلامن تَدَانينا ونابَ عن طيب لُقيانا تجافينا

وفيها يقول :

حالتْ لفقدكمُ أيامُنا فغدتْ سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانبُ العيش طلْقٌ من تألُّفنا وموردُ اللهو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصرْنا غصونَ الوصل دانيةً قطوفُهـا فجنينا منه ما شينا
ليُسْقَ عهدكمُ عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
يا جنة الخلد أُبْدِلْنا بسلْسلها والكوثر العذب زَقّوماً وغِسْلينا

وهى قصيدة تفيض بالحنين والحب والولاء مع الجفاء ، وكأنما يصب فيها زفراته ، وينفث لوعاته ، وهى لوعات محب بلغت به حُمى العشق درجة عالية من الدرجات العاطفية الحادة . ودائماً نلتقى فى ديوانه بمثل هذه القصيدة ، ومن أروع ما فيه قصيدة بعنوان « ذكرى ولادة » كتبها إليها بعد خروجه من سجنه وقبل العفو عنه ، إذ ألمّ بالزهراء ، ضاحية قرطبة الفاتنة بمناظرها الطبيعية ، فلم يكد يرْتادُها ، وقد خلع عليها الربيع حُلله ، ونثر فيها زهره ووَرْدَه وطيره ، حتى تشوق إلى حبيبته وتلهف على لقائها ، فناجاها من بعيد :

إنى ذكرتُكِ « بالزهراء » مشتاقا والأفقُ طَلْقٌ ومرأى الأرض قد راقا
وللنسيم اعتلالٌ فى أصائله كأنه رَقّ لى فاعتلّ إشفاقـا

والروضُ عن مائه الفضيّ مبتسمٌ كما شققتَ عن اللبّات أطواقا
يومٌ كأيام لذاتٍ لنا انصرمتْ بتنا لها حين نام الدهرُ سُرّاقا
نلهو بما يستميل العينَ من زَهَرٍ جال الندى فيه حتى مال أعناقا
كأن أعينَه إذ عاينتْ أرَقى بكتْ لما بى فجال الدمعُ رقراقا
وردٌ تألّق فى ضاحى منابته فازداد منه الضحى فى العين إشراقا
سَرى ينافحه نيلوفرٌ عبقٌ وسنانُ نبّه منه الصبحُ أحداقا
كلٌّ يهيجُ لنا ذكرى تشوّقنا إليك لم يعْدُ عنها الصدرُ أن ضاقا
لا سكّن الله قلباً عنّ ذكركمُ فلم يطرْ بجناح الشوق خفّاقا
لو شاء حَملى نسيمُ الصبح حين سرى وافاكمُ بفتى أضناه ما لاقى
لو كان وَفّى المنى فى جمعنا بكمُ لكان من أكرم الأيام أخلاقا
كان التجارى بمحض الودّ مذ زمنٍ ميدانَ أنسٍ جرَيْنا فيه أطلاقا
فالآن أحمدَ ما كنا لعهدكمُ سلوْتمُ وبقينا نحن عُشّاقا

وواضح ما تموج به هذه المناجاة من مختلف المشاعر ومتنوع الخواطر ، فهو محب قلق بين اليأس والرجاء ، وهو ينظر فى الطبيعة حوله ومباهج الربيع ، فيشعر كأن كل شىء يشاركه فى همومه . ولا نبالغ إذا قلنا إن هذه المقطوعة تجربة نفسية كاملة للشاعر على قلة ما نجد من ذلك فى شعرنا العربى ، فالشاعر يعطينا نفسه من خلال الطبيعة التى يصفها ، يعطينا ألمه وحزنه واضطرابه وحنينه المشتعل الذى لا يسكن ولا يهدأ ، فقد تحول كل ما فيه إلى جذوة للحب تتقد وتستعر ، ولم يعد يملك من دنياه إلا دموعه ، وإلا زفراته ، وإنها لتكاد تحرق ضلوعه .

ومما يتزع هذا المتزع من البكاء والحنين المسمّطان اللذان أشرنا إلى وجودهما فى الديوان ، فهو فيهما يبكى المعاهد والآثار التى كان يقضى فيها مع حبيبته أمسياته ولياليه ، وكأنه يبكى رسوماً دارسة ، وهو يكثر من هذا البكاء ويكثر من الوقوف على تلك الأطلال التى انطمس تذكارها فى نفس معشوقته ، ولكنها لا تزال ماثلة أمام بصره .

وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة إذ قلنا إن ابن زيدون هو أهم شاعر

وجدانى ظهر فى الأندلس ، فهو أستاذ هذا الفن هناك ، إذ كان أول من اعتصر فؤاده شعراً عذباً فيه جوًى وحرقة وهوى ولوعة ، وتبعه أصحاب الموشحات والأزجال يصوغون على هديه ويحتذون بمثاله .

وعلى نحو ما اعتصر فؤاده اعتصر اللغة نفسها ، واستخرج منها كل ممكناتها الموسيقية ليشدو ألحانه المشجية التى ملكت على العرب ألبابهم فى عصورهم القديمة والحديثة ، حتى جعل كبار شعرائهم من همهم أن يعارضوا بعض قصيده ، كى يظفروا ببعض أنغامه ، فعارضه صفى الدين الحلى والصفدى وأخيراً شوقى فى نونيته[1] الأندلسية ، إذ صاغها على نمط نونيته (أضحى التنائى بديلا من تدانينا) كما صاغ كافيته اللبنانية[2] التى يغنى مقطوعة منها عبد الوهاب على نمط كافيته (ما للمُدام تديرها عيناك) وقد عبر أجمل تعبير عن إعجابه به فى قوله :

ابنُ زيدونَ عبقرىٌّ زمانه — قصَّر المحْسنون عن إحسانه
أخذ الرومُ فى الجزيرة عنه — ومشَوْا فى خياله وافتنانه

وليس روم الأندلس وحدهم هم الذين أخذوا عنه لوعة فؤاده وعمق عشقه ، بل أخذهما أيضاً فى جنوب فرنسا جماعة التروبادور الذين تأثروا فيما بعدُ أصحاب الموشحات والأزجال من الأندلسيين ، فعمله أو بعبارة أدق غزله كان واسع التأثير بما فيه من عمق الهوى وعذاب الحب وحرقة العشق .

---

(١) مطلع هذه النونية :

يا نائح الطلح أشباه عوادينا — نشجى لواديك أم نأسى لوادينا

(٢) مطلع هذه الكافية التى نظمها شوقى فى زحلة :

شيعت أحلامى بقلب باك — ولمت من طرق الملاح شباكى

جاء فى ديوان شوقى (ولحت) بدلا من (لمت) وهو خطأ من الناشر .

٣ — رسالته الهزلية

مرّ بنا فى غير هذا الموضع أن ابن زيدون كتب هذه الرسالة على لسان ولادة لابن عبدوس منافسه فى حبها ، وهى رسالة طريفة من حيث الأسلوب الذى اتبعه فيها ، إذ أجرى على لسان معشوقته تهكماً واستهزاء بغريمه ، بلغ فيهما شأواً بعيداً فى الإجادة .

وكل من يتصفح الرسالة يستطيع أن يرى المشابهات الواضحة بينها وبين رسالة التربيع والتدوير للجاحظ ، ومعروف أن الرسالة الأخيرة تعرّض فيها الجاحظ لأديب كان يُكثر من نقده وذمّه ، وهو أحمد بن عبد الوهاب الكاتب البغدادىّ ، واتفق أن كان هذا الأديب قصيراً مملوءاً ، فنعته بأنه مربّع مدوّر ، واستمر يُضفى عليه صُوراً ساخرة من الجمال ، وصوراً أخرى من المعرفة ، ووقف منه موقف المتعلم يسأله عن مشاكل الفلسفة والعلم ، وأورد عليه كثيراً من أسماء الرجال فى كل ميدان من ميادين الثقافة .

وقرأ ابن زيدون هذه الرسالة وأعجب بها ، فحاول أن يصنع على مثالها هذه الرسالة الهزلية ، وهو يستهلها بذم ابن عبدوس ، إذ يقول :

« أيها المصاب بعقله ، المورّط بجهله ، البيّن سقَطُه ، الفاحش غلطه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب » .

وتنطلق ولادة — فالرسالة على لسانها — تصف رسوله إليها وما زَيَّنَتْ ، حتى خَيَّلَت لها أنه جمع كل الفضائل من جمال وقوة وسلطان وحسن منادمة وشجاعة ووفاء وحلم وكرم ودهاء وذكاء وبيان وعقل وفلسفة وكلام ومقالة ونحلة ،

فهو المثل الأعلى فى الأخلاق ، وهو المثل الأعلى فى الثقافة . وفى كل لون من ألوان الأخلاق وكل ضرب من ضروب الثقافة تذكر شخصاً يمثله من ملوك الأعاجم وسادة العرب وفلاسفة اليونان وأصحاب الكلام والفقه ، وتذكر أن صاحبته رفعته فوقهم مكاناً علياً .

وكل ذلك يجرى مجرى التهكم مما يستطيع القارىء أن يرجع إليه فى فصل النماذج ، فهى ترفع من تخاطبه كأنها أو كأن ابن زيدون يريد أن يرميه من حالق . وهى تخلط ذلك بسرد الأمثال والأبيات التى تجرى مجراها مستمدة منها الهزؤ به والعبث بعقله . وما تلبث أن تُفصح عما فى نفسها ، فتتوعده وتنذره ، ثم تنهال عليه بالسباب والشتائم ، فالشرق والغرب لا يجتمعان ، والخبيث والطيب لا يستويان . وتعود فتبرق وتُرعد « فالنار ، ولا العار ، والمنية ، ولا الدنية ، والحرة تجوع ولا تأكل بثدييها » وتقول له لا يغرّنك من شهدت حولى من أقمار العصر وريحان المصر ، وأين أنت وهم ، إنهم فى السماء ، أما أنت ففى الحضيض والدّرْك الأسفل . وما تزال به حتى تحضه على الندامة من محاولة دنوه منها والاستغفار مما حدثته نفسه بها .

وكل ذلك يُساق فى سيول من الأمثال ، وأبيات منثورة من الشعر ، غير الأعلام وأسماء الرجال الذين تزخر بهم الرسالة ، وكأن ابن زيدون يؤلف متناً من المتون ، فالإنسان لا يخلص من معرفة شخص ممن يشير إليهم ، حتى يقع فى مثل أو فى حادثة أو فى بيت شعر يحتاج إلى فضل من الشرح ولهذا كله عمد ابن نباتة إلى شرح الرسالة وسمى صنيعه « سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون » .

٤ — رسالته الجدية

كتب ابن زيدون هذه الرسالة وهو فى السجن ، يستعطف بها أبا الحزم جهوراً ، كى يطلق وثاقه ، ويعيد إليه حريته المسلوبة ، وهى لا تقل جمالا ولا إبداعا عن سابقتها ، بل لكأنها قصيدة نظمها ، ففيها انفعال حادِ ، وفيها عاطفة ملتهبة ، وفيها اضطراب وقلق شديد ، قلق البلبل الحبيس فى غياهب السجن وظلماته .

وهو يفتتحها باستعطاف أبى الحزم واستنزال صَوْب رحمته وعطفه متأدباً فى خطابه ، مثنياً عليه ، مادحا له ، متعللا بالآمال فى العفو عنه ، مستطرداً إلى وصف ذنبه ، وأنه لا يبلغ شيئاً بجانب الذنوب الكبيرة المعروفة عند فقهاء الإسلام ومؤرخيه ، وكأنه يريد منه أن يستصغر خطيئته ويغفرها له .

وما يلبث أن يتنصل من جريرته فلا ذَنْبَ إلا نميمة نفثها كاشح ووشاية بثها كاذب ، واستطرد فذكَّره بأنه من شيعته، ومثله لا تضيع وسائله ، ولا تضيق مذاهبه ، بل مثله ينبغى أن يدركه أبو الحزم حين تلم به حادثة أو تنزل به كارثة ، فهو شاعره الذى يُدبج فيه مدائحه ، وإنه ليستعيذ به أن يكون « كالذُّبالة المنصوبة تضىء للناس وتحترق » .

وهنا تثور نفسه ، فيعلن أنه لا يصبر على الذل والهوان ، ويلمِّح بأنه يستطيع مفارقة الوطن الذى ينكره إلى حيث يجد من يضاحكونه « قبل إنزال رحله ويعطونه حكم الصبى على أهله :

وقيل له أهْــلا وسهــلا ومرحباً   فهذا مبيتٌ صالحٌ وَمقيلُ »

وأخذت ثورته تهدأ ، فعاد إلى صوابه ومحبة وطنه ، وأعلنَ أنه لا يؤثر عليه وطناً غيره ، كما أعلن أنه لا يختار على أبى الحزم ملكاً آخر من ملوك

عصره، ودلف من ذلك إلى استعطافه والمبالغة فى تملقه حتى يعفو عن جنايته .
وذيّل الرسالة بقصيدة فى مدحه واستذلال نفسه له وطلب العفو والغفران منه .

والرسالة تمتلىء كسابقتها بذكر الأحداث والأعلام التاريخية ، كما تمتلىء بذكر الأمثال، تتخلل ذلك عبارات ، نُزعت من الشعر والنثر القديم . من أجل ذلك كانت هى الأخرى تشبه متناً من المتون ، وكانت ألفاظها وأساليبها فى حاجة إلى بيان وتفسير . وهذا ما حدث فعلا فقد شرحها الصفدى فى كتاب سماه « تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون » . وواضح أنه شعر فى دقة بما نقوله من أنه يعالج متناً يشبه متون العلم لا رسالة أدبية ، فهو يسمى شرحه «تمام المتون» ، إذ يرى نفسه إزاء رموز من الوقائع والتاريخ والأمثال يعوزها غير قليل من التوضيح والبيان .

ويستطيع القارىء أن يرجع إليها فى فصل النماذج ليرى أنها تحتوى بجانب ما ذكرنا على اقتباسات من القرآن الكريم وتضمينات من الحديث . فهى متن بأدق ما تدل عليه هذه الكلمة . ولا ينفى ذلك أنها رائعة من الوجهة البلاغية، وخاصة حين يترك ابن زيدون الرمز والإشارة ويعمد إلى الاسترسال فى كلامه، إذ يبنيه من لفظ جزل رصين ، فيه قوة ، وفيه سحر وجمال .

ونالت هذه الرسالة الجدية وسابقتها الهزلية شهرة مدوية فى تاريخ الأدب العربى ، للبراعة الأدبية فيهما من جهة ، ولما احتوتا من وقائع التاريخ وحوادثه وأسماء الرجال وأبيات الشعر الجيدة والأمثال من جهة ثانية .

ولم يكتب ابن زيدون رسالتيه بأسلوب السجع الذى شاع فى عصره بالمشرق، بل كتبهما بأسلوب النثر الحر الطليق . ولعل فى هذا ما يدل دلالة قاطعة على أن الأندلس لم تكن قد ارتبطت حتى هذا العصر ، عصر ملوك الطوائف ، بأسلوب السجع ، بل كانت لا تزال أقرب إلى الفطرة والطبع .

وليس ابن زيدون وحده الذى استخدم الأسلوب المرسل فى نثره ، فمن حوله استخدمه ابن شُهيد فى رسالته « التوابع والزوابع » كما استخدمه ابن حزم فى رسالته « طوق الحمامة » . ومع ذلك فقد كان بين الأدباء من يلتزم السجع على نحو ما نجد عند ابن بُرْد الأصغر فى رسائله .

ومهما يكن فقد كان ابن زيدون بارعاً فى صَوْغ الكلام سواء أحاله شعراً أم أحاله نثراً ، وكانت لديه قدرة بديعةفى حَوْكه ونَسْجه مهما يكن الخيط الذى يحوك عليه أفكاره ، وينسج حوله ألفاظه ، ضعيفاً أو واهياً . ويروى الرواة أن بنتاً له توفيت ، فوقف للناس بعد جنازتها يتقبل عزاءهم ويشكرهم ، فلم يجب أحداً بعبارة أجاب بها غيره . وهذا دليل ناطق على سعة تصرفه فى التعبير وقدرته على التفنن فى استخدام الأساليب . وأظن من حقنا أن نقول إنه كان فلتة من فلتات عصره ، سواء فى شعره أم فى نثره .

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن زيدون

١ — نماذج الغزل

حنين

نظم ابن زيدون هذه القصيدة النادرة المثال بعد خروجه من السجن وقبل صدور العفو عنه، يعبر فيها عن حنينه وشوقه لرؤية محبوبته ولادة، ويذكر لها أنه لا يزال وفياً بعد هجرها، ويتحدث حديث الملتاع عن أيام وصلها الذى لا يستطيع أن ينساه. ويقول ابن بسام إن جماعة عارضوه فيها فقصروا عنه، وعارضها شوقى على نحو ما مر فى غير هذا الموضع، وهى تجرى على هذا النمط :

أَضْحَى التَّنائى بديلاً من تدانينا ... ونابَ عن طيب لُقْيانا تجافينا

هَلَّا[1] وقد حان صُبْحُ البَيْنِ صَبَّحنا ... حَيْنٌ[2] فقام بنا للحَيْن ناعينا

من مُبلغ المُلْبِسِينا بانتزاحهمُ ... حُزْناً مع الدهر لا يَبْلَى ويُبْلِينا

أنَّ الزمان الذى ما زال يُضْحكنا ... أُنْساً بقربهمُ قد عاد يُبْكينا

غِيظَ العِدَى من تَساقينا الهوى فدعَوْا ... بأن نَغَصَّ[3] فقال الدَّهْرُ آمينا

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتَّ ما كان موصولاً بأيدينا

وقد نكون وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا ... فاليوم نحن وما يُرْجَى تلاقينا

يا ليت شعرى ولم نُعْتِب[4] أعاديكم ... هل نال حَظًّا من العُتْبى أعادينا

---

(١) هلا : كلمة تحضيض مركبة من هل ولا، فإن دخلت على الماضى كانت للوم على ترك الفعل وإن دخلت على المضارع كانت للحث على الفعل.

(٢) الحين : الموت.

(٣) غص بالماء : شرق به ويقال شرق بالماء أو بالدمع، وشجى بالعظم ونحوه.

(٤) نعتب : نرضى، من العتبى وهى الرضا.

لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم رأيا ولم نتقلَّد غيره دِينا
ما حقَّنا أن تُقِرُّوا عَيْنَ ذى حَسَدٍ بنا ولا أن تَسُرُّوا كاشِحًا[١] فينا
كُنَّا نرى اليأسَ تُسْلينا عوارضُهُ وقد يَئِسْنا فما لليأس يُغرينا
بِنْتُم[٢] وبِنَّا فما ابتلَّتْ جوانحُنا[٣] شَوْقًا إليكم ولا جَفَّتْ مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرُنا يَقْضِي علينا الأسى لولا تأسِّينا[٤]
حالت[٥] لفقدكمُ أيامُنا فغدَتْ سوداً وكانت بكم بِيضاً ليالينا
إذْ جانبُ العَيْش طَلْقٌ من تألُّفِنا ومَوْرِدُ اللَّهْوِ صافٍ من تَصافينا
وإذ هَصَرْنا[٦] غُصُون الوَصْل دانيةً قُطُوفها[٧] فجنينا منه ما شِينا[٨]
لِيُسْقَ عهدكمُ عهدُ السرور فما كنتم لأرواحنا إلاَّ رياحينا
لا تحسبوا نأيكم[٩] عنا يُغيِّرنا إن طالما غيَّر النَّأْىُ المحبِّينا
والله ما طلبتْ أهواؤنا بدَلًا منكم ولا انصرفَتْ عنكم أمانينا
ياساريَ البرقِ غادِ[١٠] القصرَ فاسْقِ به من كان صِرْفَ الهوى والوُدِّ يَسْقينا
واسأل هنالك هل عَنَّى[١١] تذَكُّرُنا إلْفًا ، تذكُّرُهُ أمسَى يُعنِّينا

---

(١) الكاشح : العدو .
(٢) بنتم : بعدتم .
(٣) الجوانح : الضلوع والمراد ما بداخلها من القلب والحشا .
(٤) التأسى : التصبر والتعزى .
(٥) حالت : استحالت .
(٦) هصرنا : أملنا ، والاستعارة واضحة إذ شبه الوصل بشجرة .
(٧) القطوف : الثمار التى تجنى وتقطف .
(٨) شينا : مخففة من شئنا .
(٩) النأى : البعد والفراق .
(١٠) غاد : باكر .
(١١) عنى : شغل .

ويا نسيمَ الصَّبا بَلِّغْ تَحِيَّتَنا ... من لو على البُعْدِ حَيّ كان يُحيينا

فهل أرى الدهر يقضينا مُساعفةً ... منه وإن لم يكن غِبًّا[١] تقاضينا

ربيبُ مُلْك كأن الله أنشأهُ ... مِسكاً وقدَّر إنشاء الورَى طينا

أو صاغه وَرِقاً[٢] مَحْضاً وتوَّجَه ... من ناصع التِّبْر إبداعاً وتَحْسينا

إذا تأوَّد[٣] آدَتْهُ[٤] رَفاهيـــةً ... تومُ[٥] العقود وأدمته البُرَى[٦] لينا

كانت له الشمسُ ظِئْراً[٧] في أَكِلَّتِه[٨] ... بل ما تجــــلَّى لها إلاَّ أحايينا

كأنما أُثْبِتَتْ في صَحْنِ وَجْنَتِه ... زُهْرُ الكواكب تَعْوِيذاً[٩] وتَزْيينا

ما ضرَّ أن لم نكن أكْفاءه شرفاً ... وفي المــــودّة كافٍ من تكافينا

يا روضةً طالما أَجْنَتْ لواحِظَنا ... وَرْداً جلاهُ الصِّبا غَضًّا ونِسْرينا[١٠]

ويا حيـــاةً تَمَلَّيْنا[١١] بزَهْرَتِها ... مُنًى ضروباً ولذاتٍ أفانينا

---

(١) الغب في الزيارة : الإقلال ، قال ابن الوردي :

غب وزر غبًّا تزد حبا فمن ... أكثر الترداد أضناه الملل

وهو مأخوذ من قول القائل :

فإن شئت أن تلقى فزر متواتراً ... وإن شئت أن تزداد حبا فزر غبا

(٢) الورق : الفضة .

(٣) تأود : تثنى .

(٤) آدته : أثقلته .

(٥) توم : لآلىء مزدوجة وواحدتها : تومة ، وجمعها : توم بفتح الواو وإسكانها . قال شوقي :

دع عنك روما وآثينا وما حوتا ... كل اليواقيت في بغداد والتوم

(٦) البرى : الخلاخيل .

(٧) الظئر : المرضعة .

(٨) أكلة : جمع كلة وهي ستر الفراش .

(٩) التعويذ : الرقية .

(١٠) النسرين : نوع من الورد أبيض الزهر عطر .

(١١) تملينا : تمتعنا .

ويا نعيماً خطَرْنا من غضارته[1] في وشي[2] نُعمى سَحبنا ذَيْلَه حِينا

لَسْنا نُسَمّيكِ إجلالاً وتكرِمةً وقَدْرُكِ المُعتلى عن ذاكَ يُغنينا

إذا انفردْتِ وما شُورِكْتِ في صِفةٍ فَحَسْبُنا الوصفُ إيضاحاً وتَبْيينا

يا جَنّةَ الخُلْدِ أُبدِلْنَا بِسَلْسَلِها[3] والكَوْثَرَ[4] العذبِ زَقُّوماً[5] وغِسْلِينا

كأننا لم نَبِتْ والوَصْلُ ثالثُنا والسَّعْدُ قد غَضَّ[6] من أجْفانِ واشينا

سِرّانِ في خاطرِ الظَّلْماءِ يَكتُمُنا حتى يَكادَ لسانُ الصُّبْحِ يُفْشِينا

لا غَرْوَ في أنْ ذكرنا الحُزْنَ حينَ نَهَتْ عنه النُّهَى[7] وتركْنا الصبرَ ناسِينا

إنا قرأنا الأسَى يومَ النَّوَى سُوَراً مكتوبةً وأخذنا الصَّبْرَ تلْقِينا

أما هواكِ فلم نَعْدِلْ بمَنْهَلِهِ شِرْباً وإن كان يُرْوِينا فيُظْمِينا

لم نَجْفُ أُفْقَ جمالٍ أنت كوكبُهُ سالين عنه ولم نَهْجُرْهُ قالِينا[8]

ولا اختياراً تجنّبْناه عن كَثَبٍ لكن عَدَتْنا[9] على كُرْهٍ عوادِينا

نأسَى عليكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعَةً فينا الشَّمولُ[10] وغنّانا مُغَنِّينا

لا أكْؤُسُ الرّاحِ تُبْدِي من شمائلنا سِيما ارتياحٍ ولا الأوتارُ تُلْهِينا

---

(١) الغضارة : خفض العيش .

(٢) الوشي : ثوب من الحرير منقوش .

(٣) السلسل : الماء العذب البارد .

(٤) الكوثر : نهر في الجنة .

(٥) الزقوم والغسلين . طعامان من أطعمة أهل النار

(٦) غض : خفض .

(٧) النهى : جمع نهية وهي العقل .

(٨) قالين : كارهين .

(٩) عدتنا : صرفتنا ، والعوادي : صروف الدهر .

(١٠) الشمول : الخمر ، ومشعشعة : ممزوجة بالماء .

دُومى على العَهْد، ما دمنا، مُحافظةً ... فالحرُّ من دَانَ[1] إنصافاً كما دِينا
فما اُستَعَضْنا خليلاً منكِ يَحبِسُنا ... ولا استفَدْنا حبيباً عَنْكِ يَثْنينا
ولو صَبَا نحونا من عُلْوِ مطلَعِهِ ... بَدْرُ الدُّجَى لم يكن حاشاكِ يُصْبينا[2]
أولِى[3] وفاءً وإن لم تبذُلى صلةً ... فالطيف يُقْنِعنا والذكْرُ يكفينا
وفى الجواب متاعٌ لو شَفَعْتِ به ... بيضَ الأيادى التى ما زلتِ تُولينا
عليكِ منِّى سلامُ الله ما بَقِيتْ ... صَبابةٌ منكِ نُخْفِيها فتُخْفينا

عمق الهوى

هذه إحدى مقطوعاته التى نظمها بعد هجر صاحبته ، وهو فيها يذوب شوقاً ولوعة ، ويتمنى لو عاد الرضا والوصال ، يقول :

إليكِ من الأنام غدا ارتياحى ... وأنتِ على الزمان مَدَى اقتراحى
وما اعترضتْ همومُ النفس إلاّ ... ومن ذكراكِ رَيْحانى وراحِى
فَدَيْتُكِ إنَّ صَبْرِى عنك صَبْرِى ... لَدَى عطشى على الماء القَرَاح[4]
ولى أملٌ لو الواشون كفُّوا ... لأطلع غَرْسُه ثمرَ النجاح
وأعجبُ كيف يغلبنى عَدُوٌّ[5] ... رضاكِ عليه من أمضَى سلاح
ولما أن جَلَتْكِ لىَ اختلاساً ... أكُفُّ الدهر للحَيْن المُتَاح
رأيتُ الشمس تطلع من نقابٍ ... وغُصْنَ البانِ يَرْفُلُ فى وِشاح[6]

(١) دان : جزى . دين : مجهول دان .
(٢) يصبينا : يستهوينا .
(٣) أولى : أنعمى .
(٤) القراح : الصافى .
(٥) يريد بالعدو غريمه ابن عبدوس .
(٦) الوشاح : حزام يرصع بالجوهر تشده المرأة بين عاتقها وكشحيها .

فلو أسطيع(١) طرتُ إليك شوقاً ... وكيف يطير مقصوصُ الجناح

على حالىْ وصالٍ واجتنابٍ ... وفى يومىْ دُنُوٍّ وانتزاحِ(٢)

وحسبى أن تطالعك الأمانى ... بأفقك فى مساء أو صباحِ

وأنْ تُهدِى السَّلامَ إلىَّ غِبًّا(٣) ... ولو فى بعض أنفاس الرِّياحِ

فؤادى من أسًى بكِ غيرُ خالٍ ... وقلبى عن هوًى لكِ غير صاحِ

لهفـــة

هذه مقطوعة ثانية يعبر فيها عن شوقه ، وأنه لا يستطيع صبراً عن لقاء صاحبته ، وهو فيها مضطرب بين اليأس والأمل ، وإن الأمل لترجح كفته فى نفسه ، يقول :

هل راكبٌ ذاهبٌ عنهم يُحَيِّينى ... إذ لا كتابَ يوافينى فيُحْيِينى

قد متُّ إلا ذَماءً(٤) فىَّ يُمْسِكُهُ ... أن الفؤاد بلُقياهم يُرَجِّينى

ما سرَّح(٥) الدَّمعُ من عَيْنى وأطلقَهُ ... إلا اعتيادُ أسًى فى القلبِ مَسْجُونِ

صَبْراً لعل الذى بالبُعْد أمْرَضَنى ... بالقُرْب يوماً يُدَاوينى فَيَشْفِينى

كيف اصطبارى وفى كانونَ(٦) فارقنى ... قَلْبى وها نحن فى أعْقابِ تَشْرِينَ(٧)

شَخْصٌ يذكِّرنى فاه وغُرّتَهُ ... شمسُ النهارِ وأنفاسُ الرياحين

---

(١) أسطيع : أستطيع وكثيراً ما تحذف تاء استطاع فى الشعر للتخفيف .

(٢) انتزاح : بعد .

(٣) غبا : فى الحين بعد الحين .

(٤) الذماء : بقية الروح .

(٥) سرح : أطلق .

(٦) كانون الأول : شهر ديسمبر ، وكانون الثانى : شهر يناير .

(٧) تشرين الأول : شهر اكتوبر ، وتشرين الثانى : شهر نوفمبر .

لئن عَطِشْتُ إلى ذاك الرُّضاب[1] لكم ... قد بات منه يُسَقِّيني فيرْوِيني
وإن أفاض دموعى نوحُ باكيةٍ ... فكم أراهُ يُغنِّيني فيُشجيني
وإن بعُدْتُ وأضنتنى الهموم لقد ... عهدته وهْو يُدْنيني فيُسْليني
يا حُسْنَ إشراق ساعات الدنوِّ بَدَتْ ... كواكبًا فى ليالى بُعدِهِ الجُونِ[2]
والله ما فارقونى باختيارهمُ ... وإنما الدَّهْرُ بالمكروه يرْميني
وما تبدَّلتُ حُبًّا غير حُبِّهِمُ ... إذا تبدَّلتُ دِينَ الكفْرِ من ديني
أفْدِى الحبيب الذى لو كان مقتدراً ... لكان بالنَّفْس والأهلين يَفْديني
يا ربِّ قرِّبْ على خيْرٍ تلاقِينا ... بالطالع السَّعْد والطير الميامينِ[3]

وداع

تعبر هذه المقطوعة عن يأس الشاعر وألمه ، فقد أصبح فؤاد صاحبته فارغاً منه ، وأظلمت الدنيا فى عينيه ، فتغنى الشقى المحروم بهذا اللحن الشجى الحزين يقول :

لئن قصَّر اليأسُ منكِ الأمَلْ ... وحال تجنِّيكِ دون الحِيَلْ
وناجاكِ بالإفكِ[4] فىَّ الحسودُ ... فأعطيته جهرةً ما سَأَلْ
وراقكِ سِحْرُ العِدَى المُفْتَرى ... وغرَّكِ زُورُهُمُ المُفْتَعَلْ
فإن ذِمامَ الهوَى لن أزالَ ... أُبقِّيه حفظا كما لم أزَلْ
فديْتُكِ إن تَعْجلى بالجفا ... فقد يَهَبُ الرَّيْثَ بعضُ العَجَلْ[5]

---

(١) الرضاب : الريق .

(٢) الجون بضم الجيم جمع جون بفتح الجيم : السود .

(٣) الميامين : جمع ميمون : ذو اليمن والبركة . يقال هو ميمون الطائر أى مبارك الطلعة .

(٤) الإفك : الكذب .

(٥) نظم ابن زيدون فى هذا الشطر مثلا مشهوراً هو : رب عجلة تهب ريثا ، والريث : البطء .

علامَ اطَّبتْكَ[1] دواعى القِلَى[2] وفيمَ تَنَتْكِ نواهى العَذَل

ألم ألزَمِ الصبْرَ كيما أخِفَّ ألم أكثِرِ الهجْرَ كى لا أمَلّ

ألم أرْضَ منك بغيرِ الرِّضا وأبْدِى السرور بما لم أنَلْ ؟

ألم أغتفر موبقاتِ[3] الذنو ب عمدًا أتيتِ بها أم زَلَلْ ؟

وما ساء ظَنَّىَ فى أن يُسِىءَ بِىَ الفعلَ حُسْنُكِ حتى فَعَلْ

على حين أصبحتِ حَسْبَ الضمير ولم تَبْغِ منك الأمانى بَدَلْ

سَعَيْتِ لتكديرِ عَهْدٍ صفا وحاولْتِ نَقصَ وِدادٍ كَمَلْ

فما عُوفيتْ مِقَتى[4] من أذًى ولا أُعْفِيتْ ثقتى من خَجَلْ

ومهما هززتُ إليك العتا ب ظاهرْتِ[5] بين ضروب العِلَلْ

كأنك ناظرتِ أهلَ[6] الكلام وأوتيتِ فهمًا بعلم الجدَلْ

ولو شئتِ راجعْتِ حُرَّ الفعالِ وعُذْتِ لتلك السجايا الأُوَلْ

فلم يكُ حَظِّىَ منكِ الأخسَّ ولا عُدَّ سهمِىَ فيكِ الأقلّ

عليكِ السلامُ سلامُ الوَداعِ وداعِ هَوًى مات قبل الأجَلْ

وما باختيارٍ تسلَّيت عَنْكِ ولكننى مُكرَهٌ لا بَطَلْ[7]

ولم يَدْرِ قلبِىَ كيف النزوعُ إلى أن رأى سيرةً فامتثلْ

---

(١) اطبتك : استمالتك .

(٢) القلى : البغض .

(٣) موبقات : مهلكات .

(٤) المقة : الحب .

(٥) ظاهر : طابق .

(٦) أهل الكلام : علماء الكلام والتوحيد .

(٧) تضمين لمثل مشهور : « مكره أخاك لا بطل » .

وليت الذى قاد عفوا إليكِ أبىَّ الهوى فى عِنان الغزَلْ
يُحيلُ عذوبةَ ذاك اللَّمَى[١] ويَشْفى من السُّقم تلك المُقَلْ

شكوى

يئن الشاعر فى هذه الشكوى وهو نازح غريب ، ويتحدث عن حزنه وسهاده ولوعات حبه ، وتشجيه ورقاء[٢] ، فينبض قلبه بمشقة ، يقول :

هل تذكرون غريبًا عاده شَجَنُ من ذكركم وجفا أجفانَهُ الوسَنُ[٣]
يُخْفى لواعجه والشوقُ يَفْضَحُهُ فقد تساوى لديه السرُّ والعلَنُ
يا ويلتاه أيبقى فى جوانحه فؤادُه وهوَ بالأطلال مُرْتَهَنُ
وأرَّقَ العينَ والظلماء عاكفةٌ وَرْقَاء قد شفّها إذ شفّنى حَزَنُ
فبتُّ أشكو وتشكو فوق أيكَتها[٤] وبات يهفو ارتياحًا بيننا الغُصُنُ
يا هل[٥] أجالسُ أقواما أحبُّهُمُ كنا وكانوا على عَهْدٍ فقد ظعنوا[٦]
أو تحفظون عهودًا لا أضيّعها إن الكرام بحفظِ العهد تُمتَحَنُ

---

(١) اللمى : سمرة فى الشفة .

(٢) ورقاء : حمامة .

(٣) الوسن : النوم .

(٤) الأيكة : الشجر الملتف .

(٥) يا : حرف نداء للاكتفاء على تقدير أن المنادى محذوف .

(٦) ظعنوا : رحلوا .

ذكرى قرطبة

أصبح الشاعر طريداً من فردوس الحب ، فقد نزح عنه بعيداً فى إشبيلية ، ولم يعد أمامه أمل فى أن يعب من كئوسه ، فقد أدبرت عنه السعادة ، وفرت منه نشوة الحب ، ولم يبق له إلا الفراغ والحسرة وأطياف الذكرى ، وهو يتغنى بذلك كله فى هذا المسمط :

سقى الغَيْثُ أطْلالَ الأحبّة بالحِمَى وحَاكَ عليها ثَوْبَ وشْيٍ مُنَمْنَمَا[1]

وأطلعَ فيهـا للأزاهير أنْجُما فكمْ رفَلَتْ[2] فيهاالخرائدُ[3] كالدُّمى[4]

إذ العيشُ غَضٌّ والزمان غلام[5]

أهيم بجبّـارٍ يَعِزُّ وأَخْضَعُ شذا المِسْكِ منْأرْدَانه[6] يتضوّعُ

إذا جئتُ أشكوهُ الجوَى ليسَيَسْمَعُ فما أنا فى شيء من الوَصْلِ أطْمَعُ

ولا أن يزور المُقْلَتين مَنَـامُ

قَضِيبٌ من الرَّيْحانِ أثْمَرَ بالبَدْرِ لواحِظُ عينيه مُلِئْنَ من السِّحْرِ

وديباجُ خَدَّيه حكى رَوْنَقَ الخمرِ وألفاظُه فى النُّطْق كاللؤلؤ النَّثْرِ

وريقَتُه فى الارتشاف مُدَامُ

سَقَى جَنَباتِ القَصرِ صَوْبُ الغمائمِ وغنّى على الأغصان وُرْقُ الحمائمِ

بقرطبةَ الغرّاء دارِ الأكارمِ بلادٌ بها شَقّ الشبابُ تمائمى

وأنجبنى قومٌ هنَـاكَ كِرَامُ

---

(١) المنمنم : المزخرف والمنقوش .

(٢) رفلت : تبخترت .

(٣) الخرائد : جمع خريدة وهى العذراء الخجول .

(٤) الدمى : جمع دمية وهى التمثال .

(٥) الزمان غلام : كناية عن السرور والسعادة .

(٦) الأردان : الأكمام .

فكم لىَ فيها من مَسَاء وإصبَاحِ بكل غزالٍ مشرق الوَجْه وضَّاحِ
يُفدّم[١] أفواهَ الكئوس بتفَّاحِ إذا طلعتْ فى راحهِ أنجمُ الرَّاحِ
فإنا لإعظـام المُدَام قيـامُ

ويومٍ لدى (النبتىّ[٢])فى شاطئ النَّهرِ تُدَارُ علينا الرَّاحُ فى فِتْيَةٍ زُهْرِ[٣]
وليس لنا فَرْشٌ سوى يانع الزَّهْرِ يَدُورُ بها عَذْبُ اللّمَى أهْيَفُ الخصرِ
بفيه من الثَّغر الشَّنيبِ[٤] نظامُ

ويومٍ (بجُوفىِّ الرُّصَافة) مُبْهِجِ مررنا بروض الأُقْحُوَان المُدَبَّجِ[٥]
وقابلَنَا فيه نسيمُ البنَفْسَجِ ولاح لنـا وَرْدٌ كخدٍّ مُضَرَّجِ
نراه أمام النَّوْر[٦] وهو إمامُ

وأكرمْ بأيام (العُقاب) السَّوَالفِ ولهوٍ أثرناهُ بتلك المعـاطفِ
بسودِ أثيثِ الشَّعر بيضِ السَّوَالفِ[٧] إذا رَفلوا فى وَشى تلك المطارف[٨]
فليس على خَلْع العِذار[٩] ملامُ

وكم مَشْهَدٍ عند (العقيق) وجِسْرِهِ قَعَدْنا على حُمْر النبات وصُفْرِهِ
وظَبْيٍ يسقّينا سلافةَ[١٠] خَمْرِهِ حكى جسدى فى السُّقم رقَّةَ خَصْرِهِ

---

(١) يفدم : يغطى من الفدام وهو الغطاء يوضع على فم الإناء أو الكأس .
(٢) النبتى : اسم موضع بقرطبة ، وكذلك الألفاظ التى وضعناها بين أقواس فى المسمط .
(٣) زهر : جمع أزهر وهو مشرق الوجه .
(٤) الثغر الشنيب : المفتر عن أسنان لؤلؤية .
(٥) المدبج : المزين .
(٦) النور : الزهر الأبيض .
(٧) أثيث الشعر : غزيره ، والسوالف : جمع سالفة ، وهى صفحة العنق .
(٨) المطارف : جمع مطرف وهو ثوب من حرير .
(٩) خلع العذار : كناية عن التهتك والخلاعة .
(١٠) سلافة الخمر : أول ما يشرب منها ، وتسمى الخمر سلافة .

لواحِظُهُ عنـد الرُّنُوِّ سِهامُ

فقل لزمانٍ قد تولَّى نعيمُهُ ورثَّتْ على مَرِّ الليـالى رُسُومُهُ

وكم رَقَّ فيه بالمَشِيِّ نسيمُهُ ولاحَتْ لسارى الليل فيه نجومهُ

عليكَ من الصَّبِّ المَشُوق سلامُ

٢ — نماذج الاستعطاف

تذلل وعتاب

نظم ابن زيدون هذه القصيدة فى مفتتح حياته التعسة بسجنه ، وهو فيها يعاتب أبا الحزم جهوراً ويتضرع ويتذلل ، ولكن تذلل الأبى الذى يقدر ملكاته الفنية ، فهو يستعطف ويفخر ، وكأنما يندب نفسه ، يقول وقد أعياه السجن وأثقلته محنه :

ألم يَأْنِ أن يبكى الغمامُ على مثلى ويَطلُبَ ثأرى البَرْقُ مُنصلِتَ[١] النَّصْلِ

وهلا أقامت أنجمُ اللَّيـلِ مَأْتماً لتَنْدُبَ فى الآفاق ما ضاع من نُبلى

ولو أنصفَتْنى وَهْىَ أشكالُ هِمَّتى لألقتْ بأيدى الذُّلِّ لما رأتْ ذُلِّى

ولافترقَتْ سَبْعُ الثُّرَيَّا وغاظهـا بمَجْمَعِها ما فرَّق الدَّهْرُ من شَمْلِى

لعَمْرُ الليالى إن يكن طال نَزْعُها[٢] لقد قَرْطَسَتْ[٣] بالنَّبل فى مَقْتَلِ النُّبْلِ

تحلَّتْ بآدابى وإن مآربى لسانحةٌ فى عَرْضِ أُمْنِيَّةٍ عُطْلِ

أُخَصُّ لفَهْمى بالقِلَى وكأنمـا يبيت لذى الفهم الزمانُ على ذَحْلِ[٤]

وأُجْفَى على نَظْمى لكل قلادةٍ مفصَّلةِ السِّمْطين[٥] بالمَنْطق الفَصْلِ

(١) منصلت : ماض قاطع .

(٢) النزع : الرمى بالسهام والنبال .

(٣) قرطست : أصابت .

(٤) الذحل : الثأر .

(٥) السمط : الخيط فيه الخرز ، وإلا فهو السلك .

ولو أننى أستطيع كى أرضِىَ العِدَى ... شَرَيْتُ ببعض العلم حظًّا من الجهلِ
أمقتولةَ الأجفان[1] مالكِ والهًا ... ألم ترِكِ الأيامُ نجماً هوَى قبلى ؟
أَقِلِّى بُكاءً لستِ أوّلَ حُرَّةٍ ... طوتْ بالأسى كَشْحاً[2] على مَضَضِ الثُّكْلِ
وفى « أمِّ موسى » عِبْرةٌ إذ رمتْ بهِ ... إلى اليمِّ فى التابوت[3] فاعتبرى وَاسْلِى
ولله فينا عِلْمُ غيبٍ وحَسْبُنا ... به عند جَوْر الدَّهرِ من حَكَمٍ عَدْلِ[4]
وإن رجائى فى الهمام ابنِ جَهْوَرٍ ... لمستحكمُ الأسباب مُسْتَحْصِدُ[5] الحَبْلِ
كريمٌ عريقٌ فى الكرام وقلَّما ... يُرَى الفَرْعُ إلا مُسْتَمِدًّا من الأصْلِ
نَهُوضٌ بأعْباء المروءة والتُّقى ... سَحُوبٌ لأذيال السِّيادة والفَضْلِ
إذا أَشْكل الخطبُ المُلِمُّ فإنه ... وآراءه كالخطِّ يوضَحُ بالشَّكْلِ
يَرِفُّ على التأميل لألاءُ بِشْرِهِ ... كما رفَّ لألاءُ الحسام على الصَّقْلِ[6]
محاسنُ ما للحُسْنِ فى البدر عِلَّةٌ ... سوى أنها باتت تَمِلُّ فيَسْتَمْلِى
وتَغْنَى عن المدح اكتفاءً بسَرْوِها[7] ... غِنَى المُقْلَة الكحْلاء عن زينة الكُحْلِ
أبا الحزم إنى فى عتابك مائلٌ ... على جانبٍ تأوِى إليه العُلا سَهْلِ

---

(١) الخطاب هنا لأمه .

(٢) الكشح : الخاصرة يقال طوى كشحاً عن فلان إى أعرض عنه وقطعه .

(٣) يشير إلى قصة موسى وما كان من وحى الله لأمه أن تلقيه فى اليم إذا خافت عليه، فألقته ، فالتقطته امرأة فرعون .

(٤) عدل : عادل .

(٥) مستحصد : قوى متين .

(٦) يرف : يتلألأ و يبرق . يشبه لألاء بشر أبى الحزم بلألاء السيف حين يجلى و يصقل .

(٧) السرو : الشرف .

حمائمُ شكوى صَبَّحتْك هوادلا[١] تُناديك من أفنانِ آدابيَ الهدْلِ

جوادٌ إذا اسْتنَّ[٢] الجيادُ إلى مدى تمطَّرَ[٣] فاستولى على أمدِ الخصْلِ[٤]

ثوى صافِناً[٥] فى مَربط الهُون يشتكى بتصْهاله ما ناله من أذى الشَّكلِ[٦]

أفى العَدْلِ أنْ وافتْكَ تترى رسائلى فلم تترُكَنْ وَضعاً لها فى يَدَىْ عَدْلِ

أُعِدُّك للجُلَّى وآمُلُ أن أرى بنُعماكَ موْسوماً وما أنا بالغُفْلِ

وما زال وعْدُ النفس لى منك بالمُنَى كأنى به قد شِمْتُ بارقة المَحْلِ[٧]

أئِنْ زعم الواشون ما ليس مَزْعماً تُعَذِّرُ[٨] فى نَصْرِى وتُعْذِرُ فى خَذلى

وأصْدَى[٩] إلى إسعافك السائغ الجَنَى وأضْحَى[١٠] لدى إنصافك السابغ الظِّلِّ

ولو أننى واقعتُ عَمْدًا خَطِيئةً لما كان بِدْعاً من سجاياك أن تُملى[١١]

فلم أستثِرْ حَربَ الفِجار[١٢] ولم أُطعْ مُسَيْلِمَةً إذ قال إنى من الرُّسْلِ

ومثلىَ قد تهفو به نشوةُ الصِّبا ومثلك مَنْ يعفو ومالك من مِثْلِ

وإنى لتنهانى نُهاىَ عن التى أشاد بها الواشى ويَعْقِلنى[١٣] عقلى

---

(١) هوادلا : جمع هادلة من الهديل وهو صوت الحمام ، وفى آخر البيت وصف الأفنان بأنها هدل من تهدلت أى تدلت .

(٢) استن الجياد : مضت مسرعة فى السباق .

(٣) تمطر : انصب .

(٤) استولى على أمد الخصل : كناية عن إحراز قصب السبق ، والخصل : بلوغ الهدف .

(٥) الصافن من الجياد : الذى قام على ثلاثة قوائم ولوى الرابعة .

(٦) الشكل : شد قوائم الدابة بالشكال

(٧) شام البرق : رآه ، وبارقة المحل لا تمطر ، والكناية واضحة .

(٨) تعذر الأولى : تقصر ، وتعذر الثانية : تلتمس العذر .

(٩) أصدى : أعطش .

(١٠) أضحى : من ضحا يضحى إذا برز للشمس .

(١١) تملى : تمهل .

(١٢) كانت فى الجاهلية بين قريش وبنى عامر وانتهكت فيها الثانية حرمة الأشهر الحرم .

(١٣) يعقلنى : يحبسنى .

أأنقض فيك المدح من بعد قوة ... فلا أقتدى إلا بناقضة[1] الغزل
ذممت إذاً عهد الحياة ولا يزل ... ممرًا على الأيام طعمهما المحلى
وما كنت بالمهدى إلى السؤدد الخنا ... ولا بالمسىء القول فى الحسن الفعل
وما لىَ لا أثنى بآلاء منعم ... إذا الروض أثنى بالنسيم على الطل
هى النعل زلت بى فهل أنت مكذب ... لقيل الأعادى إنها زلة الحسل[2]
ألا إن ظنى بين فعليك واقف ... وقوف الهوى بين القطيعة والوصل
فإن تمن لى منك الأمانى فشيمة ... لذاك الفعال القصد والخلق الرسل[3]
وإلا جنيت الأنس من وحشة النوى ... وهول السرى بين المطية والرحل[4]
سيغنى بما ضيعت منى حافظ ... ويلفى لما أرخصت من خطرى مغلى
وأين جواب منك ترضى به العلا ... إذا سألتنى عنك ألسنة الحفل

سهر وعذاب

لم يستمع أبو الحزم إلى توسلات الشاعر فى القصيدة السابقة ، فنظم هذه القصيدة يعبر فيها من جهة عن سهاده وأرقه لهجر حبيبته ، ومن جهة ثانية عن عذابه فى السجن وألمه ، وفى أثناء ذلك نراه يتعزى بإنحاء الدهر على الأحرار ، مفتخراً بشعره وما يحسنه منه ، مذكراً أبا الحزم بما دبجه فيه من ثناء عطر ، يقول :

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر ... إلا ذكرتك ذكر العين بالأثر[5]
ولا استطلت ذماء[6] الليل من أسف ... إلا على ليلة سرت مع القصر

---

(١) يشير إلى الآية الكريمة « ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً » .

(٢) الحسل : السوق الشديد أو الخسة وبكسر الحاء : ولد الضب .

(٣) تمنى : تقدر ، الفعال : الفعل الجميل ، القصد : العدل ، الرسل : السهل والطلق .

(٤) يشير إلى أنه سيرحل إن لم يحظ منه بالصفح الجميل .

(٥) يقول إنه سيذكرها ذكر من يرى عين الشىء برؤية أثره .

(٦) الذماء : بقية الروح .

ناهيكِ من سَهَرٍ بَرْحٍ تألّفه … شوقٌ إلى ما انقضى من ذلك السَّمرِ

يا ليت ذاك السّوادَ الجَوْنَ[١] متّصِلٌ … قد استعار سواد القلب والبَصَرِ[٢]

أما الضّنَى فجَنَتْهُ لحظَةٌ عَنَنٌ[٣] … كأنها والرّدى جاءا على قَدَرِ

فهمتُ معنى الهوى من وَحْيِ طَرْفك لى … إنّ الحوار لمفهومٌ من الحَوَرِ

والصّدرُ مذ وردتْ رِفهاً نواحيَهُ … تُومُ القلائد لم تجنح إلى صَدَرِ[٤]

حُسنٌ أفانينُ لم تَستَوفِ أعينُنا … غاياته بأفانــينٍ من النظَرِ

واهاً لثغرِكِ ثَغراً بات يكلؤهُ … غيرانُ تَسرِي عواليه[٥] إلى الثُّغَرِ[٦]

يقظانُ لم يكتحل غَمْضاً مراقبةً … لرابط الجأش مِقدامٍ على الغَرَرِ[٧]

لا لَهوُ أيامه الخالى بمُرْتَجَعٍ … ولا نعيمُ لياليــه بمُنْتَظَرِ

إذ لا التحيــةُ إيماءٌ مُخالَسَةٌ … ولا الزيارة إلمامٌ على خَطَرِ

مُنّى كأن لم يكن إلا تذكُّرُها … إن الغرام لمعتادٌ مع الذِّكَرِ

مَنْ يَسألِ الناسَ عن حالى فشاهدُها … مَحضُ العِيان الذى يُغنى عن الخبرِ

لم تَطوِ بُردَ شبابى كَبْرَةٌ وأرَى … بَرْقَ المشيبِ اعتلَى فى عارضِ[٨] الشَّعرِ

قبل الثلاثين إذ عهدُ الصِّبا كَثَبٌ[٩] … وللشبيبة غُصْنٌ غيرُ مُهتَصِرِ[١٠]

---

(١) الجون : الحالك .

(٢) يتمنى لو أن سواد الليل استعار سواد قلبه وبصره حتى يطول ويدوم .

(٣) عنن : عارضة .

(٤) الورود الرفه : الورود الدائم ، وتوم القلائد : اللآلىء المزدوجة . والصدر : الرجوع بعد الورود .

(٥) العوالى : الرماح .

(٦) الثغر : جمع ثغرة ، وهى نقرة النحر .

(٧) الغرر : الخطر .

(٨) العارض : صفحة الخد .

(٩) كثب : قريب .

(١٠) مهتصر : مائل .

ها إنّها لوعةٌ في الصدر قادحةٌ ... نارَ الأسى ومشيبي طائرُ الشَّرَرِ

لا يَهنأُ الشامتَ المرتاحَ خاطرُهُ ... أنّي مُعَنَّى الأماني ضائعُ الخطرِ

هل الرياحُ بنجم الأرض عاصفةٌ ... أم الكسوفُ لغير الشمس والقمرِ؟

إن طال في السِّجْنِ إيداعي فلا عجبٌ ... قد يودَعُ الجفنَ حدُّ الصارم الذَّكَرِ

وإن يُثبِّطْ، أبا الحزمِ الرِّضا، قَدَرٌ ... عن كشف ضُرِّي فلا عَتْبٌ على القَدَرِ

ما للذنوب التي جاني كبائرِها ... غيري يُحَمِّلني أوزارَها وَزَرِي(1)

من لم أزلْ من تَأتِّيه على ثقةٍ ... ولم أبِتْ من تجنِّيه على حَذَرِ

ذو الشيمةِ الرَّسْلِ(2) إن هيجتْ حَفِيظَتُهُ ... والجانبِ السَّهْلِ والمُسْتَعْتَبِ اليَسَرِ(3)

وزيرُ سَلْمٍ كفاهُ يُمْنُ طائرِهِ ... شؤمَ الحروب ورأيٌ مُحْصَدُ المِرَرِ(4)

أغنتْ قريحته مُغْنَى تجاربِهِ ... ونابتِ اللَّمْحَةُ العجلى عن الفِكَرِ

كم اشترى بِكَرَى عينيه من سَهَرٍ ... هدوءَ عَيْنِ الهدى في ذلك السَّهَرِ

في حَضْرَةٍ غاب صَرْفُ الدهرِ خَشْيَتَه ... عنها ونام(5) القَطا فيها فلم يُثَرِ

ممتَّعٌ بالربيع الطَّلْق نازِلُها ... يُلْهِيه عن طيبِ آصالٍ ندى بُكَرِ(6)

ما إن يزال يبثُّ النَّبتَ في جَلَدٍ(7) ... مذ ساسها ويُفيض الماء من حَجَرِ

وكنتُ أحسبني والنجمَ في قَرَنٍ ... ففيم أصبحتُ منحطًّا إلى العَفَرِ(8)؟

---

(١) الوزر : الظهير والمعين ويريد أبا الحزم .

(٢) الرسل : السمحة .

(٣) اليسر : السهل .

(٤) المرر : جمع مرة ، وهي قوة الخلق وشدته ، ومحصد : قوى متين .

(٥) القطا : جمع قطاة : طير يشبه الحمام ؛ يذكر كثيراً في الشعر الجاهلي والإسلامي ؛ ونومه كناية عن الأمن والدعة .

(٦) البكر جمع بكرة : أوائل النهار ضد الآصال .

(٧) الجلد : الأرض الصلبة المستوية .

(٨) العفر : التراب ، ووجه الأرض .

أحين رفَّ على الآفاق من أدبى ... غرْسٌ له من جَناهُ يانعُ الثمَرِ
وسيلةٌ سببٌ إلاَّ تكن نَسَباً ... فَهْوَ الودادُ صَفا من غير ما كُدَرِ
وبائنٍ من ثناء حُسْنُهُ مَثَلٌ ... وَشْىُ المحاسن منه مُعْلَمُ الطُّرَرِ (١)
يُسْتَودَع الصُّحْفَ لا تخفى نَوَافِجه (٢) ... إلا خفاء نسيمِ المسك فى الصُّرَرِ (٣)
لى فى اعتمادك بالتأميل سابقةٌ ... وهِجْرَةٌ فى الهوى أولى من الهِجَرِ
ففيم غَضَّتْ همومى من عُلا هِمَمِى ... وحاصَ (٤) بى مطلبى عن وجهة الظَفَرِ
هل من سبيلٍ فماء العَتْبِ لى أَسِنٌ ... إلى العذوبة من عُتباك والخَصَرِ (٥)
نذرتُ شكرك لا أَنْسَى الوفاء بهِ ... إن أسفرتْ لىَ عنها أَوْجُهُ البُشَرِ
لا تَلْهُ عنى فلم أسألكَ معتسفاً ... ردَّ الصِّبا بعد إيفاءٍ على الكِبَرِ (٦)
هَبْنِى جَهِلْتُ فكان الصُّنْعُ سَيِّئةً ... لا عُذْرَ منها سوى أنى من البَشَرِ
إن السيادةَ بالإغضاء لابسةٌ ... بهاءها وبهاء الحُسْنِ فى الخَفَرِ
فاشْفَعْ أَكُنْ مثل مَمْطُورٍ ببلدتهِ ... جذلانَ بالوطن المألوف والوطَرِ
والبَسْ من النِّعمة الخضراء أَيْكَتَها ... ظِلاًّ حراماً على الآفات والغِيَرِ
نعيمَ جَنَّةِ دُنْيا إنْ هى انصرمَتْ ... نعمتَ بالخُلْدِ فى الجنَّات والنَّهَرِ

---

(١) بائن : فائق فى الحسن ، من بانه يبونه : فاقه فى المزية ، والطرر : جوانب الثوب . ومعلم الطرر : المميز بعلامات دالة .

(٢) النوافج : جمع نافجة وهى وعاء المسك .

(٣) الصرر : جمع صرة وهى الكيس .

(٤) حاص : مال

(٥) الخصر : البرودة ، والعتبى : الرضا ، يقول : هل من سبيل إلى رضاك الذى يشبه الماء العذب الخصر فإن ماء العتب أصبح آسنا كدرا .

(٦) يقول إنه لم يسأله مستحيلا ، فلم يسأله أن يرد إليه الصبا وقد أوفى على المشيب .

ألم وعزاء

أرسل الشاعر هذه القصيدة من سجنه إلى صديقه الكاتب المشهور أبي حفص بن برد يألم من حسادة ، ويعجب لألافه وكيف أنهم لا يسعون في خلاصه ، ويقلب صفحات الزمن أمامه متعزياً عن كارثته ، ويتحدث أخيراً إلى صديقه ، فيسأله أن لا يكف عن مجونه ، فهو يحب له أن يكون سعيداً في حين هو شقي بائس في غياهب السجن وظلماته ، يقول :

ما على ظَنِّيَ باسُ ... يَجْرَحُ الدَّهْرُ ويأسُو
ربمـــا أشرف بالمَرْ ... ءِ على الآمال ياسُ
ولقـــد يُنْجِيك إغفا ... لٌ ويُرْدِيك احتراسُ
والمحـــاذيرُ سِهامٌ ... والمقـــاديرُ قِياسُ(١)
ولكم أَجْدَى قعودٌ ... ولكم أَكْدَى(٢) التماسُ
وكذا الدَّهْرُ ، إذا ما ... عَزَّ ناسٌ ذلَّ ناسُ
وبنو الأيام أخيـــا ... فٌ(٣) : سَراةٌ وخِساسُ
نَلْبَس الدنيـــا ولكنْ ... متعةٌ ذاك اللِّبـــاسُ
يا أبا حَفْصٍ وما سا ... واكَ في فَهْمٍ إياسُ(٤)
من سَنَا(٥) رأيك لي في ... غَسَق(٦) الخَطْب اقتباسُ

---

(١) قياس هنا : جمع قوس .

(٢) أكدى : أخفق .

(٣) أخياف : مختلفون ، سراة : شرفاء .

(٤) إياس بن معاوية من قضاة العراق في عصر بني أمية وكان مشهوراً بالذكاء والفهم والفراسة .
قال أبو تمام يمدح أحمد بن المعتصم :

إقدام عمرو في سماحة حاتم ... في حلم أحنف في ذكاء إياس

(٥) سنا : ضوء .

(٦) غسق : ظلمة .

ووِدادى لكَ نَصٌّ لم يُخالفْهُ قيــاسُ
أنا حيرانُ ، وللأمـــر وضـوحٌ والتباسُ
ما ترى فى معشرٍ حا لوا عن العهد وخاسوا[1]
ورأونى سامريًّا[2] يُتَّقَى منــه المِسَاسُ
أذؤبٌ هامت بلَحْمِى فانتهاشٌ وانتهاسُ[3]
كلهم يسأل عن حا لى وللذئب اعتساسُ[4]
إن قَسَا الدهرُ فللما ء من الصخر انبجاسُ
ولئن أمسيتُ محبو سًا فللغيث احتباسُ
يَلْبُدُ[5] الوَرْدُ[6] السَّبَنْتَى وله بَعْدُ افــتراسُ
فتأمَّلْ كيف يَغْشَى مُقْلَةَ المجْدِ النُّعاسُ
ويُفَتِّ المِسْكُ فى التُّرْ بِ فيُوطَا ويُدَاسُ
لا يكن عَهْدُكَ وَرْدًا إن عهدى لك آسُ[7]
وأدِرْ ذِكرىَ كأسًا ما امتطَتْ كفَّك كاسُ
واغتنم صَفْوَ الليـالى إنما العَيْشُ اختلاسُ
وعَسَى أن يَسْمَحَ الدَّهْــرُ فقد طال الشِّماسُ[8]

---

(١) خاسوا : خانوا .

(٢) السامرى : قصته مشهورة فى القرآن الكريم ، كان من قوم موسى ، فعبد العجل وتحاماه قومه .

(٣) الانتهاس : العض .

(٤) الاعتساس : طلب الصيد بالليل .

(٥) يلبد : يلصق بالأرض .

(٦) الورد : الأسد ، والسبنتى : الجرىء .

(٧) يشير إلى أن الورد يسرع ذبوله بخلاف الآس .

(٨) الشماس : التمرد والعصيان .

جنـاية

نظم الشاعر هذه القصيدة بعد ثورة بنى ذكوان على أبى الوليد بن جهور سنة ٤٤٠ للهجرة، ومر بنا أن أبا الوليد قضى على هذه الثورة، والشاعر محزون مضطرب، يتنصل من تبعة الثورة بل إنه ليعلن توبته مما يدل على أن ظنوناً أحاطت به وتهماً وجهت إليه، وخاصة أن صلات قوية كانت منعقدة بينه وبين هذا البيت، بيت بنى ذكوان، ولعله لذلك يهاجمهم فى القصيدة مهاجمة عنيفة. يقول فزعاً إلى ساحة أبى الوليد وعطفه آملا أن يقيله من عثرته :

هل النِّداءُ الذى أعلنتُ مُستمَعُ ... أم فى المئاتِ[1] التى قدّمتُ مُنْتَفَعُ

ليس الركونُ إلى الدنيا دليلَ حِجًى ... فإنها دُوَلٌ أيامُها مُتَعُ

تأتى الرزايا نظاماً فى حوادثها ... إذ الفوائدُ فى أثنائهـا لُمَعُ[2]

أهلُ النبـاهة أمثالى لدهرِهمُ ... بِقَصْرِهمْ دون غايات المُنى وَلَعُ

لولا بنو جَهْوَرٍ ما أشرقَتْ هِمَمِى ... كمثل بيض الليالى دونها الدَّرَعُ[3]

همْ المـلوكُ ملوكُ الأرض، دونهمُ ... غيدُ السَّوالفِ فى أجيادها تَلَعُ[4]

من الوَرَى، إن يفوقوهم فلا عجبٌ ... لذلك الشَّهْرُ من أيامه الجُمَعُ

قومٌ متى تَختَفِلْ فى وصف سُؤْددِهم ... لا يأخذ الوصفُ إلاّ بعضَ ما يَدَعُ

---

(١) يريد بالمئات مئات الأبيات التى مدح بها أبا الوليد.

(٢) لمع : يريد أنها متفرقة غير متصلة، فهى قليلة.

(٣) الدرع : السواد.

(٤) غيد : جمع أغيد وهو المائل، والسوالف : جمع سالفة وهى صفحة العنق، والتلع : طول العنق. يقول إن ملوك الأرض الذين يمشون مختالين قد لووا أعناقهم كبراً وعجباً دون بنى جهور.

تجهّم الدهر فانصاتتْ لهم غُرَرٌ ماء الطلاقة فى أسرارها دُفَعُ[١]
باهتْ وجُوهُهمُ الأعراضَ من كَرَمٍ فكلما راق مَرْأًى طاب مُسْتَمَعُ
سَرْوٌ[٢] تزاحَمُ فى وصف المديح له محاسنُ الشعر حتى بينها قُرَعُ
أبو الوليد قد استوفى مناقبَهمْ فللتفاريق[٣] منها فيه مُجتَمَعُ
هو الكريمُ الذى سَنّ الكرامُ له زُهْرَ المساعى فلم تَستَهْوِه البِدَعُ[٤]
من عِتْرَةٍ ألهمتْه فى تعاقبها أن المكارمَ إيصاءٌ[٥] بها شِرَعُ[٦]
مُهذَّبٌ أخْلَصَتْهُ أوَّلِيّتُهُ كالسيف بالغ فى إخلاصه الصَّنَعُ[٧]
إن السيوف إذا ما طاب جَوْهَرُها فى أول الطَّبْعِ لم يَعْلَقْ بها طَبَعُ[٨]
جذلانُ يستضحكُ الأيامَ عن شِيَمٍ كالروض تضحك منه فى الرُّبَى قِطَعُ
كالبارد العَذْب لذّتْ من موارده
لشاربٍ — غِبَّ[٩] تبريح الصَّدَى[١٠] — جُرَعُ
قل للوزير الذى تأميله وَزَرى إن ضاق مُضْطَرَبٌ[١١] أوهال مُطَّلَعُ[١٢]

---

(١) انصاتت : تبلجت ، الغرر : الجباه ، الطلاقة : السماحة ، وأسرار هنا : سرائر الوجه ، ودفع : جمع دفعة وهى الدفقة من الماء .

(٢) سرو : شرف .

(٣) يريد أنه اجتمع لابن جهور ما تفرق فى الملوك من المناقب والفضائل .

(٤) يريد أنه يسير على السنة ، ولا يتبع بدعة من البدع ، وهو يمدحه كثيراً بالتقوى .

(٥) إيصاء : يريد أنهم يتواصون بها .

(٦) شرع : جمع شرعة وهى الشريعة والمذهب .

(٧) الصنع : الصناع الحاذق .

(٨) طبع : صدأ أوعيب .

(٩) غب : بعد .

(١٠) الصدى : العطش .

(١١) المضطرب : السير فى مناكب الأرض .

(١٢) المطلع : الاطلاع على ما يخيف ، لقوله هال .

أَصِخْ(١) لهمسِ عتابٍ تحته مِقَةٌ ... تُكلِّفُ النفسُ منه فوق ما تَسَعُ

ما للعتابِ الذى أَحْصَفْتَ(٢) عُقْدَتَه ... قد خامرَ(٣) القلبَ من تضييعهِ جَزَعُ

ألستُ أهلَ اختصاصٍ منك تُلبسُنى ... جمالَ سيماهُ أم مافىَّ مُصْطَنَع ؟(٤)

لم آتِ فى الحال من سَعْيِى لديك وَنًى(٥) ... بل بالجُدود(٦) تطير الحالُ أو تقع

لا تَسْتَجِزْ وَضْعَ قدرى بعد رفعِكَهُ ... فاللهُ لا يرفع القَدْرَ الذى تَضَعُ

تقدَّمتْ لك نُعمَى رادها(٧) أَمَلِى ... فى جانبٍ هو للإنسان مُنْتَجَعُ

ما زال يُونِقُ شكرى فى مواقعها ... كالمُزْن تونق فى آثارهِ التُّرَع(٨)

شُكرٌ يروق ويُرْضى طيبُ طُعْمَتِهِ ... فى طيِّه نفحاتٌ بينها خِلَعُ

ظَنَّ العِدَى إذ أَغَبَّتْ(٩) أنها انقطعتْ ... هيهات ليس لمدِّ البحر مُنْقَطَعُ

لا بأس بالأمر — إن ساءتْ مبادئُهُ ... نَفْسَ الشفيق — إذا ماسَرَّت الرُّجَع(١٠)

إن الأُلَى كنتُ من قبل افتضاحِهِمُ ... مثل الشَّجَا فى لَهاهُمْ(١١) ليس يُنتزَعُ

لم أَحْظَ إذ همْ عِدًى بادٍ نفاقُهمُ ... إلا كما كنت أحظى إذ همُ شِيَع(١٢)

---

(١) أصخ : أرهف السمع . المقة : المحبة .

(٢) أحصفت : أحكمت .

(٣) خامر : خالط .

(٤) مصطنع : مكان للصنيعة .

(٥) ونى : تقصير ، يقول : لم آت ونى أى لم ارتكب تقصيراً .

(٦) الجدود : الحظوظ .

(٧) رادها : تقدمها .

(٨) الترع : جمع ترعة وهى الروضة فى المكان العالى .

(٩) أغبت : تأخرت .

(١٠) الرجع : جمع رجعة ، يريد بها هنا الأواخر فى مقابل المبادئ والأوائل .

(١١) لهى : جمع لهاة ، وهى الحلق . وقد بدأ يتحدث منذ هذا البيت عن بنى ذكوان ، وجعلهم أعداءه وحساده على ما يبدع من شعره فى أبى الوليد ، كما هو واضح فى الأبيات التالية .

(١٢) يقول إنهم كانوا ينافقونه فيظهرون له الصداقة وهم أعداؤه ، وهو فى ذلك كله يتبرأ منهم ومن جريرتهم .

ما غاظهم غيرُ ما سيَّرْتُ من مِدَحٍ | فى صائك[1] المِسْكِ من أنفاسها فَنَعُ[2]
كم غُرَّةٍ لى تلقَّتها قلوبُهُمُ | كما تلقَّى شهابَ المُوقِدِ الشَّمَعُ[3]
إذا تأمَّلتَ [حَيَّ] غِبَّ غِشْيهِمُ | لم يَخْفَ من فَلَقِ الإصْباح مُنْصَدِعُ[4]
تلك العرانين[5] لم يصلح لها شَمَمُ[6] | فكانَ أهونَ ما نيلتْ به الجَدَعُ[7]
أَوْدَعْتَ نُعماكَ منهم شَرَّ مُغْتَرَسٍ | لن يكْرُمَ الغرْسُ حتى تكْرُمَ البُقَعُ[8]
لقد جزَتْهم جوازى الدَّهرِ عن مِنَنٍ | مَضَتْ فلم يَثْنِهِمْ عن غَمْطِها وَرَعُ
لا زال جَدُّكَ بالأعداء يَصْرَعُهُمْ | إن كان بين جدود الناس مُصْطَرَعُ

٣ — نماذج المديح

ابتهاج

كان ابن زيدون كما أسلفنا صديقاً لأبى الوليد بن جهور ، فلما توفى أبوه سنة ٤٣٥ للهجرة واعتلى عرش قرطبة من بعده ابتهج قلب الشاعر ، وأحس كأن الدنيا تدق بشائرها من حوله ، فنظم هذه القصيدة يعبر عن فرحة نفسه ، وقد عاودته ذكرى ولادة ، فاجتمعت النشوتان : نشوة الحب ونشوة الغبطة بالصديق وولايته التى ستحقق أمانيه ، يقول :

ما لِلمُدَامِ تُدِيرُها عَيْناكِ | فيَميلَ فى سُكْرِ الصِّبا عِطْفاكِ ؟

---

(١) صائك : لازق وسائل .

(٢) الفنع : نفحة المسك .

(٣) يقول كم من قصيدة لى كانت توقد قلوبهم بنار الحسد فيتلقونها كما يتلقى الشمع نار الموقد له ولهبها اللاذع .

(٤) انصدع الصبح : انشق عن الضياء .

(٥) العرانين : جمع عرنين وهو أعلى الأنف .

(٦) الشمم : ارتفاع قصبة الأنف مع استوائها ، والعرب يكنون بالشمم عن الأنفة والعزة .

(٧) الجدع : قطع الأنف .

(٨) البقع : جمع بقعة وهى القطعة من الأرض .

هلا مزجْتِ لعاشقيكِ سُلافَها ... ببَرُودِ ظَلْمِكِ[1] أو بعَذْبِ لَماكِ[2]

بل ما عليكِ وقد مَحَضْتُ لكِ الهوَى ... فى أن أفوز بحُظْوَة المِسْوَاكِ[3]

ناهيكِ ظلماً أن أضرَّ بىَ الصَّدَى ... بَرْحاً[4] ونال الرِّىَّ عودُ أراكِ

واهاً لعطفكِ والزمانُ كأنَّما ... صُبِغَتْ غضارتُهُ[5] ببُرْدِ صِباكِ

والليلُ مهما طال قصَّر طولَهُ ... هاتى — وقد غفَل الرقيبُ — وهاكِ

ولطالما اعتلَّ النسيمُ فخلْتُهُ ... شكواىَ رقَّتْ فاقتضتْ شكواكِ

إن تألفى سِنَةَ النُّؤُوم خَلِيَّةً ... فلطالما نافرْتِ فىَّ كَرَاكِ[6]

أوِ تحْتَبِى بالهجر فى نادى القِلَى ... فلكم حَلَلْتِ إلى الوصال حُباكِ[7]

أما مُنَى نفسِى فأنتِ جميعُها ... يا ليتنى أصبحتُ بعضَ مُناكِ

يدْنُو بوصْلكِ حين شطَّ[8] مزارُهُ ... وَهْمٌ أكادُ به أُقَبِّلُ فاكِ

ولئن تجنَّبْتُ الرَّشادَ بغَدْرةٍ ... لم يَهْوِ بى فى الغَىِّ غيْرُ هوَاكِ

للجَهْورىِّ أبى الوليد خلائقٌ ... كالرَّوْضِ أضحكهُ الغمامُ الباكى

مَلِكٌ يسوسُ الدهرَ منه مهذَّبٌ ... تدبيرُه للمُلْكِ خيرُ مِلاكِ[9]

---

(١) الظلم : الريق وماء الأسنان ، وبرود : بارد .

(٢) اللمى : سمرة فى الشفة .

(٣) المسواك : جمعه مساويك : عود تطهر وتنظف به الأسنان . ولقد استعمل بشار كلمة المسواك استعمالا لطيفاً حيث يقول :

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر ... إلا شهادة أطراف المساويك

(٤) البرح : الشدة والمشقة .

(٥) الغضارة : البهجة .

(٦) الكرى : النوم ، ونافر هنا : عادى .

(٧) القلى : البغض الشديد ، واحتبى : اشتمل بالثوب مشتق من الحبوة وتجمع على حبى ، أى إن كنت تهجرينى الآن فكم وصلتنى .

(٨) شط : بعد .

(٩) ملاك الأمر : قوامه .

جارَى أباه بعد ما فاتَ المدَى فتلاه بين الفَوْتِ والإدْراكِ
شمسُ النهارِ وبَدْرُهُ ونجومُهُ أبناؤهُ من فَرْقَدٍ وسِماكِ[١]
يَسْتَوْضِحُ السارون زُهْرَ كواكبٍ منهم تُنير غياهبَ الأحْلاكِ
بُشْرَاكِ يا دُنْيا وبُشْرانا معاً هذا الوزيرُ أبو الوليد فتاكِ
تُلْفِى السيادةَ ثَمَّ[٢] إن أضلَلْتِها ومتى فقدتِ السَّرْوَ[٣] فهْوَ هُناكِ
وإذا سمعتِ بواحدٍ جُمِعَتْ له فِرَقُ المحاسن فى الأنام فذاكِ
صمصامُ بادرةٍ[٤] وطَوْدُ سَكينةٍ وجوادُ غاياتٍ وجِذْلُ[٥] حِكاكِ
طَلْقٌ يُفَنِّدُ فى السماح ، وجاهلٌ من يَستَشِفُّ النار بالمِحْراكِ
صَنَعٌ[٦] الضمير إذا أجال بمُهْرَقٍ[٧] يُمناهُ فى مَهَلٍ وفى إيشاكِ[٨]
نظمَ البلاغةَ فى خلال سطورهِ نَظْمَ اللآلى التُّومِ[٩] فى الأسْلاكِ
نادَى مساعيَه الزمانُ مُنافِساً أحْرَزْتِ كلَّ فضيلةٍ فَكَفاكِ
ما الوَرْدُ فى مَجناهُ سامَرَه النَّدَى مُتَحَلِّياً إلاَّ ببعض حُلاكِ

(١) الفرقد والسماك : نجمان نيران .

(٢) ثم : هناك .

(٣) السرو : الشرف .

(٤) صمصام بادرة : سيف حدة .

(٥) الجذل : عود الشجرة ، وجذل الحكاك : جذل ينصب لتحتك به الإبل الجربى ، ويقال للرجل جذل حكاك أى يستشفى برأيه وتجربته ، ومنه المثل القائل : أنا عذيقها المرجب وجذيلها المحكك .

(٦) صنع الضمير : صناع حاذق .

(٧) المهرق : الصحيفة .

(٨) إيشاك : إسراع .

(٩) توم اللآلىء : المزدوج منها .

كلا ولا المسكُ النَّمومُ[1] أريجُهُ مُتَعَطِّراً إلاّ بوَسْمِ ثناكِ[2]
اللَّهْوُ ذِكْرُكِ لا غناءٌ مُرَجَّعٌ[3] يفتنُّ فى الإطلاق والإمْساكِ[4]
طارتْ إليكِ بأوْليائكِ هِزَّةٌ تهفو لها أسَفاً قلوبُ عِدَاكِ
يأيها القمرُ الذى لسَنائه وسناؤه[5] تَعْشُو[6] السَّبعُ فى الأفلاكِ
فَرَحُ الرياسةِ إذ ملكْتَ عِنانها فَرَحُ العروسِ بصحة الإمْلاكِ[7]
من قال إنك لستَ أوْحَدَ فى النُّهَى والصالحاتِ فدانَ بالإشراكِ
قَلَّدْنِىَ الرَّأْىَ الجميلَ فإنَّهُ حَسْبِى ليومَىْ زينةٍ وعِراكِ
وإذا تحدَّثتِ الحوادثُ بالرَّنَا[8] شَزْراً إلىَّ فقُلْ لها : إيَّاكِ
والدَّجْنُ للشمس المنيرة حاجبٌ والجفْنُ مَثْوَى الصارم الفَتَّاكِ
دامَتْ حياتُك ما اسْتُدِمْتَ فلم تزَلْ . تحْيا بك الأخطارُ بعد هلاكِ

---

(١) النموم : الساطع .

(٢) الثنا : الثناء .

(٣) مرجع : مردد .

(٤) الإطلاق والإمساك : الانطلاق بالصوت ثم النزول به .

(٥) السنا بالقصر : الضوء ، وبالمد : الشرف والرفعة .

(٦) فى رواية تعنو أى تذل وتخضع ، وتعشو : تقصد . يقال عشا النار وإلى النار . رآها ليلا فقصدها راجياً هدى أو قرى . قال الأعشى :

متى تأته تعشو إلى ضوء نـاره تجد خير نار عندها خير موقـد

(٧) الإملاك : الزواج .

(٨) الرنا : النظر المستديم .

ملتمس الوزارة

أفصح الشاعر لأبي الوليد في القصيدة السابقة عن رجائه فيه، إذ قال له « قلدني الرأى الجميل » ووقف ببابه ينتظر تحقيق ملتمسه ، ولم يكن يلتمس مالا أو جائزة ، إنما كان يلتمس أن يلقى إليه بمقاليد دولته، فيصبح وزيره ومستشار رأيه وحكمه ، وقد عينه للنظر في شئون أهل الذمة ولكن ذلك كان دون مبتغاه وأمله ، فعاد إليه يستميحه ويقول :

أجلْ! إنّ ليلى حيث أحياؤها الأَسْدُ(١) ... مَهاةٌ حَمَتْها في مَرَاتعها أُسْدُ

يمانيَّةٌ تَدْنُو ويَنْـأَى مَزارُها ... فسِيَّانِ منها في الهَوَى القُرْبُ والبُعْدُ

إذا نحن زُرْناها تمرَّدَ مارِدٌ ... وعزَّ- فلم نظفر بهِ - «الأبْلَقُ الفَرْدُ»(٢)

تحول رماحُ الخَطِّ(٣) دون اعتيادِها(٤) ... وخَيْلٌ تمطَّى نحو غاياتِها جُرْدُ

لحيٍّ لَقَاحٍ(٥) تأنفُ الضَّيْمَ منهمُ ... جَحاجِحَةٌ(٦) شِيبٌ وصُيَّابةٌ(٧) مُرْدُ

سَتُبْلغها عنـا الشَّمالُ(٨) تحيَّةً ... نَوافِحُ أنفاسِ الجَنُوبِ لها رَدُّ

فما نُسِيَ الإلْفُ الذي كان بيننا ... لطول تنائينا ولا ضُيِّعَ العَهْدُ

لئن قيل: «في الجِدِّ النجاحُ لطالبٍ» ... لقلَّ غَناءُ الجِدِّ ما لم يكن جَدُّ(٩)

هُوَ الدَّهْرُ مهما أَحْسنَ الفِعْلَ مَرَّةً ... فعنْ خطإٍ لكن إساءتُه عَمْدُ

---

(١) الأسد : قبيلة يمنية وهي الأزد .

(٢) الأبلق الفرد : حصن للسموءل اشتهر بمنعته .

(٣) الخط : ساحل البحرين ، وإليه تنسب الرياح الخطية .

(٤) اعتيادها : زيارتها .

(٥) الحي اللقاح : الذين لا يدينون لغيرهم من الملوك .

(٦) الجحاجحة جمع جحجاح : السادة

(٧) صيابة القوم : خيارهم .

(٨) الشمال والجنوب : ريحان .

(٩) الجد بكسر الجيم : الاجتهاد، وبالفتح : الحظ .

حِذَارَكَ أَن تفـترَّ منه بجانبٍ | فَفِى كل وادٍ من نوائبه « سَعْدُ »(١)
ولولا السَّرَاةُ الصِّيدُ من آل جَهْوَرٍ | لأعوز من يُعْدِى عليه متى يَعْدُو
ملوكٌ لبِسْنا الدَّهر فى جَنَبَاتِهِمْ | رقيقَ الحواشى مثلما فُوِّفَ(٢) البُرْدُ
بحيثُ مَقِيلُ(٣) الأمن ضافٍ(٤) ظلالُهُ | وفى سَهْلِ العَيْشِ العُذُوبَةُ والبَرْدُ
هم النفرُ البيضُ الذين وجوههم | تروق فتستشفى بها الأعْيُنُ الرُّمْدُ
كرامٌ يمـدُّ الراغبون أكفَّهُمْ | إلى أبْحُرٍ منهم لهـا باللُّهَا(٥) مَدُّ
فلا يُنْعَ منهم هالكٌ ، فَهْوَ خالِدٌ | بآثارهِ إن الثناء هو الخُلْدُ
أليس أبو الحزم الذى غِبَّ سَعْيِهِ | تبصَّر غاوينـا فبان له الرُّشْدُ
أغَرُّ تمهَّدْنا به الخفضَ(٦) بعد ما | أقِضَّ(٧) علينا مَضْجَعٌ ونَبَا مَهْدُ
لشَمَّرَ حتى انجـاب عارضُ فتنةٍ(٨) | تألَّق منها البَرْق واصطخبَ الرَّعْدُ
هو الأثَرُ المحمودُ إن عاد ذِكْرُهُ | تطلَّعتِ العلياءُ واستشرف المَجْدُ
تولَّى فلولا أن تلاهُ مُحمَّدٌ | لأوطأ خَدَّ الحُرِّ أخْمَصَهُ العَبْدُ
مَليكٌ يسوسُ المُلْكَ منهُ مُقلَّدٌ | روى عن أبيهِ فيه ما سَنَّهُ الجَدُّ(٩)
سَجِيَّتُه الحُسْنَى وشِيمَتُهُ الرِّضا | وسيرته المُثْلَى ومذهبُهُ القَصْدُ

---

(١) يشير إلى مثل يضرب فى الشر وهو: « بكل واد سعد » .
(٢) فوف : رقق . والبرد : الثوب
(٣) مقيل : مكان القيلولة وهو هنا بمعنى منزل .
(٤) ضاف : سابغ .
(٥) اللها جمع لهوة : العطايا .
(٦) خفض العيش : يسره ودعته .
(٧) أقض : خشن .
(٨) يشير إلى قيام أبى الحزم بشئون قرطبة بعد الفتنة الطويلة آخر عصر بنى أمية هناك .
(٩) يتصنع فى هذا البيت لما هو معروف عند أهل الحديث من الرواية وسلسلة السند .

هُمامٌ إذا زانَ الندىّ بحَبْوَةٍ … ترجّح فى أثنائها الحَسَبُ العِدُّ[1]

زعيمٌ لأبنـاء السيادة بارعٌ … عليهم ، به تُثنى الخناصر إن عُدُّوا

بعيدُ منال الحال دانِي جَنى النّدَى … إذا ذُكِرَت أخلاقهُ خَجِلَ الوَرْدُ

مُمِرٌّ[2] لمن عاداه إذْ أولياؤُهُ … يلذُّ لهم كالماء شِيبَ به الشّهْدُ

إذا اعترف الجانى عفا عَفْوَ قادرٍ … عَلا قدرهُ عن أن يَلِجّ به حِقْدُ

له عَزْمَةٌ مطويّةٌ فى سكينةٍ … كما لانَ مَتْنُ السّيف واخْشوشَنَ الحدُّ

ذراعٌ — لما يأتى به الدّهرُ — واسعٌ … و باعٌ — إلى ما يحْرِزُ الفَخْرَ — مُمتَدُّ

هو الملكُ المشفوعُ بالنُّسْك[3] مُلْكُهُ … فلله ما يَخْفَى ولله ما يَبْدُو

إلى الله أوّابٌ ، ولله خائفٌ … و بالله مُعْتَدٌّ ، وفى الله مُشْتَدُّ

لقد أوسعَ الإسلامَ بالأمس حِسْبَةً … نحَتْ غَرَضَ الأجرِ الجزيلِ فلم تَعْدُ

أباحَ حِمَى الخمرِ الخبيثةِ ، حائطاً … حِمَى الدِّينِ من أن يُسْتَباحَ له حَدُّ[4]

فطوّقَ باستئصالها المِصْرَ مِنّةً … يكاد يُؤدّى شكرها الحجَرُ الصّلْدُ

مَظِنّــةُ آثامٍ وأمُّ كبائرٍ … يُقصِّر عن أدنى معايبها العَدُّ

غَنِىٌّ ، فحُسْنُ الظّنِّ بالله مالُهُ … عَزيزٌ ، فصُنْعُ اللهِ من حوله جُنْدُ

مَسَاعٍ أجَدّتْ زينةَ الأرضِ ، فالحصى … لآلىءُ نَثْرٌ ، والثّرى عَنبَرٌ وَرْدُ

لدى زهراتِ الرّوْضِ عنها بِشارَةٌ … وفى نَفَحاتِ المِسْكِ من طيبها وَفْدُ

فَدَيْتُكَ إنى قائلٌ فمعرِّضٌ … بأوْطَارِ نَفْسٍ منك لم تَقْضِها بَعْدُ

---

(١) العد : الكثير .

(٢) ممر : من المرارة .

(٣) بدأ يمدحه بالتقوى .

(٤) يشير هنا إلى أمر ابن جهور بكسر دنان الخمر ، والحد : مفرد الحدود وهى ضروب التأديب والعقاب التى أمر الشارع بها .

مُنًى كالشَّجا[1] دون اللَّهاة تعرَّضَتْ ... فلم يَكُ للمصدور من نَفْثِها بُدُّ

أَمِثْلِيَ غفلٌ خاملُ الذِّكرِ ضائعٌ ... ضياعَ الحُسامِ العَضْبِ[2] أصْدَأَهُ الغِمْدُ

أنا السيفُ لا يَنْبُو مع الهزِّ غَرْبُهُ[3] ... إذا ما نبا السَّيْفُ الذى تَطْبَعُ[4] الهنْدُ

بَدَأْتَ بنُعْمَى غَضَّةٍ[5] إنْ تُوالِهَا ... فحسنُ اللآلى أن يواليَها سَرْدُ[6]

لعمركَ ما للمال أسعى فإنَّما ... يرى المال أَسْنَى حَظِّهِ الطَّبعُ الوَغْدُ

ولكن لحالٍ[7] إن لبستُ جمالها ... كَسَوْتُكَ ثَوْبَ النُّصْحِ أعلامُهُ الحَمْدُ

شكر

وأنال أبو الوليد الشاعر أمنيته ، ولبى ملتمسه ، فجعله وزيره ، وأسلمه زمام دولته ، فكاد يطير فرحاً ، وفى غمرة هذا الفرح ذهب يقول من قصيدة فيه :

يا بنى جَهْوَرٍ الدنيا بكمْ ... حَلِيَتْ أيامُها بعد العَطَلْ[8]

إنما دولتُكم واسِطَةٌ[9] ... أهدتِ الحُسْنَ إلى عِقْدِ الدُّوَلْ

نحنُ من نعمائكم فى زَهْرَةٍ ... جَدَّدَتْ عَهْدَ الربيع المُقْتَبَلْ

لِىَ ذِكْرٌ بالذى أسْدَيْتَهُ ... نابهٌ ، ودَّ حسودٌ لو خَمَلْ

فقَبِلْتُ اليَدَ[10] من بطْنِ يَدٍ ... ظَهْرُهَا — الدهرَ — محلٌّ للقُبَلْ

كُلُّنا بُلِّغَ ما أَمَّلَهُ ... فابلُغِ الغايةَ من كل أملْ

---

(١) الشجا : ما يعترض فى اللهاة أو الحلق .

(٢) العضب : القاطع .

(٣) الغرب : الحد .

(٤) تطبع : تصنع .

(٥) غضة : ناضرة .

(٦) سرد : تتابع .

(٧) يشير إلى الوزارة .

(٨) العطل : ضد الزينة .

(٩) واسطة العقد ، أثمن جوهرة فيه .

(١٠) اليد : النعمة .

تهنئة

فارق الشاعر قرطبة وحبه اليائس فيها إلى إشبيلية ، فنزل بساحة المعتضد ملكها ، فقربه منه ، بل جعله وزيره وأغدق عليه من رضاه وإحسانه ما جعله يلهج بالشكر والثناء عليه ، بل بالمحبة والإخلاص له ، فقد رفعه إلى مكان عليّ لا تتطاول إليه الأعناق . ووفاء بهذا الصنيع كان ابن زيدون يدبج فيه مدائحه ، ويذيعها فى المناسبات المختلفة ، حين ينتصر على أعدائه وكان كثير الحروب مظفراً ، وحين يقبل العيد وتعم مسراته . وهذه إحدى مدائحه يهنئه فيها بعيد الأضحى ، وقد بلغ الغاية فيها من حيث السبك والتجويد ، يقول :

أما فى نَسيم الرِّيح عَرْفٌ[1] مُعَرِّفُ ... لنا: هل لذات الوَقْف[2] بالجِزْعِ مَوْقِفُ

فنقضىَ أوطارَ المُنَى من زيارةٍ ... لنا كَلَفٌ[3] منها بما نتكلَّفُ

ضمانٌ علينا أن تُزَارَ ودونها ... رِقاقُ الظُّبَا[4] والسَّمْهَرِىُّ[5] المثقَّفُ

وقومٌ عِدًى يُبْدُون[6] عن صفحاتهمْ ... وأزهرُها[7] من ظُلْمَة الحِقْدِ أكْلَفُ[8]

غَيارَى يَعُدُّون الغرام جَرِيرَةً ... بها والهوى ظُلْماً يَغيظُ ويُؤْسِفُ

يوَدُّون لو يَثْنِى الوعيدُ زَماعنا[9] ... وهيهات، ريحُ الشوقِ من ذاك أعْصَفُ

وفى السِّيَرَاء[10] الرَّقْمِ وَسْطَ قبابهم ... بعيدُ مَناط القُرْط أحْوَرُ أوْطَفُ[11]

---

(١) العرف : الشذى والرائحة الطيبة .
(٢) الوقف : سوار من عاج ، والجزع : منعطف الوادى .
(٣) كلف : ولع .
(٤) الظبا : جمع ظبة وهى حد السيف .
(٥) السمهرى : الرمح ، والمثقف : المقوم .
(٦) يبدون عن صفحاتهم : كناية عن العداوة .
(٧) أزهر : مشرق .
(٨) أكلف : أسود .
(٩) الزماع : العزم على الزيارة .
(١٠) السيراء : ثوب مخطط ، والرقم ، المرقوم أى المعلم .
(١١) مناط القرط : معلقه ، وبعده كناية عن طول العنق ، وأوطف : طويل شعر أهداب العين .

وليلةَ وَافَتْنا الـكَثِيبَ لمَوْعِدٍ ... سُرَى الأيْمِ[١] لم يُعْلَم لمَسْرَاه مَزْحَفُ

تَهادَى أناةَ الخطوِ مُرتاعَةَ الحشَا ... كما رِيعَ يَعْفُورٌ[٢] الفَلا المُتَشَوِّفُ

فما الشمسُ رَقَّ الغَيْمُ دون إياتِها[٣] ... سوى ما أَرى ذاكَ الجبينُ المنصَّفُ[٤]

فديتُكِ ! أنَّى زُرْتِ نورُكِ فَاضِحٌ ... وعَطرُكِ نَمَّامٌ وحَلْيُكِ مُرْجِفُ

لَجاجٌ تَمَادَى الحبُّ في المعشر العِدَى ... وأمُّ الهوى الأُفْقَ الذى فيه نُشْنَفُ[٥]

كفانا من الوصل التحيَّةُ خُلْسَةً ... فيُومِىءُ طَرْفٌ أو بنانٌ مُطَرَّفُ[٦]

خليليَّ مَهْلاً لا تلومَا فإنَّنى ... فؤادى أليفُ البثِّ والجسمُ مُدْنَفُ[٧]

وأعنفُ ما يَلْقَى المحبُّ لجاجةً ... على نفسه في الحبِّ حين يُعَنَّفُ

وإنى ليَسْتَهوينِىَ البَرْقُ صَبْوَةً ... إلى بَرْقِ ثَغْرٍ إنْ بَدَا كاد يَخْطَفُ

وما وَلَعِى بالرَّاح إلا تَوَهُّمٌ ... لظَلْمٍ[٨] بِه كالرَّاح لو يُتَرَشَّفُ

ويُذْكرنى العِقْدَ المُرِنَّ جُمانُه[٩] ... مُرِنَّاتُ وُرْقٍ[١٠] في ذُرَى الأيْكِ تَهتِفُ

وما قَبْلَ مَن أهْوَى طَوَى البَدْرَ هَوْدَجٌ ... ولا صانَ رِيمَ[١١] القفرِ خِدْرٌ مُسَجَّفُ[١٢]

---

(١) الأيم : الحية وذكر الأفعى .

(٢) يعفور : ظبي .

(٣) إياة الشمس : حسنها وضوءها .

(٤) المنصف : الذى عليه النصيف وهو الخمار .

(٥) نشنف : نبغض ، وأم : قصد .

(٦) مطرف : مصبوغ بالحناء .

(٧) مدنف : مريض من الوجد والجوى .

(٨) الظلم : الريق وماء الأسنان .

(٩) الجمان : حب اللؤلؤ .

(١٠) الورق : جمع ورقاء وهي الحمامة .

(١١) ريم : ظبي .

(١٢) مسجف : عليه ستور .

ولا قبل عبَّادٍ حوَى البَحْرَ مجلسٌ ... ولا حَملَ الطَّوْدَ المعظَّمَ رَفْرَفُ[1]

هُمَامٌ يَزِينُ الدَّهْرَ منه وأَهْلَهُ ... مليكٌ فقيهٌ كاتبٌ مُتَفَلْسِفُ

يَلِيهِ بمَرْقاهُ سَرِيرٌ ومِنْبَرٌ ... ويَحْمَدُ مَسْعاهُ حُسَامٌ ومُصْحَفُ

رَوِيَّتُهُ فى الحادث الإدِّ[2] لَحْظَةٌ ... وتوقيعه الجالى دُجَى الخطْبِ أَحْرُفُ[3]

يَذِلُّ لهُ الجبَّارُ خيفةَ بَأْسِهِ ... ويَعْنُو إليــه الأَبْلَجُ المُتَغَطْرِفُ[4]

أَغَرُّ متى نَدْرُسْ دواوين مَجْدِهِ ... يَرُقْنا غريبٌ مُجْمَلٌ أو مُصَنَّفُ[5]

إذا نحن قَرَّظْنــاهُ قَصَّرَ مُطْنِبٌ ... ولم يتجاوز غايةَ القَصْدِ مُسْرِفُ

وأروعُ لا الباغى أَذَاهُ مُبَلَّغٌ ... مُنَاهُ ولا الرَّاجى نَدَاهُ مُسَوَّفُ

مُمَرٌّ[6] القُوَى لا يملأ الخطبُ صَدْرَهُ ... وليس لأمرٍ فائتٍ يَتَلَهَّفُ

له ظلُّ نُعمَى يذكر الهِمُّ[7] عندَهُ ... ظلالَ الصِّبا بل ذاك أَنْدَى وأَوْرَفُ

جحيمٌ لعاصيه يُشَبُّ وَقُودُهُ ... وجَنَّةُ عَــدْنٍ للمطيعين تُزْلَفُ[8]

محاسنُ، غَرْبُ[9] الذَّمِّ عنها مُفَلَّلٌ ... كَهَامٌ[10]، وشَمْلُ المَجْدِ فيها مُؤَلَّفُ

---

(١) الرفرف هنا : العرش ، والطود : الجبل العظيم .

(٢) الإد : العظيم أو الفظيع .

(٣) يقول إن توقيعاته موجزة ، يريد أنها بليغة

(٤) يعنو : يخضع ، والأبلج المتغطرف : السيد الشريف .

(٥) تصنع هنا لذكر الغريب المصنف ، وهو كتاب لأبى عبيد القاسم بن سلام .

(٦) ممر القوى: أصله شديد الفتل، فهو وصف من أوصاف الحبل، ويريد به أنه مستحكم القوى .

(٧) الهم : الشيخ الكبير .

(٨) تزلف : تقرب .

(٩) غرب الذم : حده .

(١٠) كهام : كليل .

تناهَتْ فعقْدُ المجد منها مُفصَّلٌ[(١)] سَناءٌ وبُرْدُ الفخر فيها مُفوَّفُ[(٢)]

طَلاقةُ وَجْهٍ فى مَضاءِ كمثْل ما يروقُ فِرِنْدُ[(٣)] السَّيْف والحدُّ مُرْهَفُ

على السَّيف من تلك الشَّهامةِ مِيسَمٌ وفى الروض من تلك الطلاقة زُخْرُفُ

سجايا لمن وَالاهُ كالأرْىِ[(٤)] يُجْتَنَى تعود لمن عاداه كالشَّرْىِ[(٥)] يُنْقَفُ

فقل للملوكِ الحاسديهِ متى ادَّعى سُباقَ العتيقِ[(٦)] الفائتِ الشَّأْوِ مُقْرِفُ[(٧)]

أليس بنو عَبَّادٍ القِبْلَةَ التى عليها لآمالِ البريَّةِ مَعْكِفُ[(٨)]

ملوكٌ يُرَى أحياؤُهم فخرَ دَهْرِهِمْ ويَخْلُفُ مَوتاهم ثناءٌ مُخلَّفُ

بهم باهتِ الأرضُ السماءَ فأوْجُهٌ شموسٌ وأيْدٍ من حَيًا[(٩)] المُزْنِ أوْكفُ[(١٠)]

أشارحَ معنى المَجْدِ وهُوَ معمَّسٌ[(١١)] ومُجْزِلَ حَظًّا الحَمْدِ وهْو مُسَفْسِفُ[(١٢)]

لعَمْرُ العِدَى المُسْتَدْرجيكَ بزَعْمِهِمْ إلى غِرَّةٍ[(١٣)] كادتْ لها الشمسُ تُكْسَفُ

لَكالوكَ صاعَ الغَدْرِ لُؤْمَ سَجِيَّةٍ وكِيلَ لهم صاعُ الجزاءِ المُطَفَّفُ[(١٤)]

---

(١) المفصل : من الفاصلة وهى الخرزة تفصل بين الخرزتين فى العقد .

(٢) مفوف : رقيق مزدان .

(٣) فرند السيف : جوهره ولمعانه .

(٤) الأرى : العسل .

(٥) الشرى : الحنظل ، وينقف : يشق لأخذ ما فى داخله .

(٦) العتيق : النجيب ، والشأو : الغاية ، والفائت الشأو : السابق .

(٧) مقرف : هجين غير أصيل .

(٨) معكف : عكوف .

(٩) حيا : غيث .

(١٠) أوكف : أغزر .

(١١) معمس : مبهم ملتبس .

(١٢) مسفسف : هابط ونازل .

(١٣) غرة : غفلة، وقد بدأ يتكلم عن حروب المعتضد وانتصاراته، ويظهر من القصيدة أن العيد ألم بهم بعد حرب وظفر بالأعداء .

(١٤) المطفف هنا : الكامل التام .

أظَنَّ الأعادى أن حَزْمك نائمٌ ... لقد تَعِدُ الفَسْلَ[1] الظنونُ فتُخلِفُ

تحمّلتَ عِبْءَ الدّهر عنهم وكلّهمْ ... بنُعماك موصــول التنعّم مُترَفُ

فإن يكفروا النُّعمى فتلك ديارُهُمْ ... بسيفك قاعٌ صَفْصَفُ الرَّسْم تُنْسَفُ

وبُشْراكَ عِيدٌ بالسرور مُظَلَّلٌ ... وبالحظ فى نَيْل المُنَى مُتَكَنَّف[2]

بشيرٌ بأعيــادٍ تُوَافيك بعــدَه ... كما يَنْسُقُ النَّظْمَ المُوالى ويَرْصُفُ

كريمٌ يَعُدُّ الحمدَ أنفسَ قُنْيَةٍ[3] ... فيُولَع بالفعل الجميــل ويُشْغَفُ

غدا بخميسٍ[4] يُقْسِمُ الغَيْمُ إنَّهُ ... لأحفلُ منه مُكْفَهِرًّا[5] وأكْثَفُ

هو الغيم من زُرْق الأسِنَّة بَرْقُهُ ... وللطَّبْل رَعْدٌ فى نواحيه يَقصِفُ

ولما قَضَيْنَا ما عنَانا أداؤُه[6] ... وكلٌّ بما يرضيك داعٍ فمُلحِفُ[7]

قرنَّا بحمد الله حمدَكَ إنَّهُ ... لأوْكَدُ ما يُحظِى لديه ويُزْلِفُ

وعُدْنا إلى القَصْر الذى هو كَعْبَةٌ ... يغاديه منــا ناظرٌ أو مطرِّف[8]

فإذْ نحن طالعناه والأُفْقُ لابسٌ ... عَجاجتَهُ[9] والأرضُ بالخيل ترْجُفُ

رأيناك فى أعلى المُصَلَّى كأنما ... تطلَّعَ من مِحراب داودَ يوسفُ

ولما حَضَرْنا الإذْنَ ، والدّهْرُ خادمٌ ... تُشِيرُ فيُمْضِى والقضاء مُصَرِّفُ

---

(١) الفسل : الدنىء الرذل .

(٢) متكنف : مشمول .

(٣) قنية : مكسب .

(٤) خميس : جيش .

(٥) مكفهرا : مسودا .

(٦) يريد أداء الصلاة فى العيد .

(٧) ملحف : ملح .

(٨) مطرف هنا : شاخص ذهولا ، وفى رواية مطوف بتشديد الواو المكسورة .

(٩) العجاجة : الغبار فى الحرب .

وَصَلْنا فقبَّلنا النَّدَى منك فى يَدٍ ... بها يُتْلَفُ المـالُ الجسيم ويُخْلَفُ
لقد جُدْتَ حَتى مابنفسٍ خصاصةٌ[١] ... وأَمَّنْتَ حتى ما بقلبٍ تَخَوُّفُ
ولولاك لم يَسْهُلْ من الدهر جانبٌ ... ولاذلَّ مُنقادٌ ولا لانَ مِعطَفُ[٢]
لكَ الخَيْرُ أَنَّى لى بشكرك نَهضةٌ[٣] ... وكيف أؤدى فرض ما أنت مُسْلِفُ
أعَدْتَ بَهِيمَ[٤] الحال منىَ غُرَّةً ... يقابلها طَرْفُ الجَموحِ فيُطْرَفُ[٥]
وبَوَّأتَهُ دُنيـاكَ دارَ مُقامةٍ ... بحيثُ دَنَا ظِلٌ وذُلِّلَ مَقْطَفُ
وكم نعمةٍ أُلبِسْتُها سُنْدُسِيَّةٍ ... أَسَرْبَلُها[٦] فى كل حينٍ وأُلْحَفُ
مَواهبُ فيَّاض اليـدين ، كأنمـا ... من المُزْنِ تَمْرَى[٧] أومن البحر تُغْرَفُ
فإن أكُ عَبْدًا قد تَمَلكْتَ رِقَّهُ ... فأرفعُ أحوالى وأسْنَى وأشْرَفُ

تحيـــة

نظم الشاعر هذه القصيدة يحيى بها المعتضد حين انتصر ابنه إسماعيل على ابن الأفطس صاحب بطليوس ، وقتل ابن أحد الأمراء الذين كانوا يؤازرونه ، وهو العزّ بن إسحق بن عبد الله ، يقول :

لِيَهْنِ الهُدَى إنجاحُ سَعْيِكَ فى العِدَى ... وأنْ راحَ صُنْعُ اللهِ نحوكَ واغْتَدى[٨]
وبُشْرَاكَ دُنْيَا غَضَّةُ العَهْدِ طَلْقَةٌ ... كما ابتسمَ النُّوّار عن أَدْمُعِ النَّدَى

(١) خصاصة : فقر .
(٢) المعطف هنا : السيف .
(٣) نهضة : قدرة .
(٤) بهيم : أسود ، والغرة : بياض الجبهة .
(٥) يطرف : يريد كأنما أصاب طرفه عود ، فهو محملق ذاهل .
(٦) أسربلها : ألبسها .
(٧) تمرى : تدر وتسكب .
(٨) راح صنع الله واغتدى نحوه : كناية عن عنايته به ورعايته فى الغدو والرواح .

ودولةُ سَعْدٍ لا انتهاءَ لحَدِّهِ ... إذا قِيلَ فيه قد تناهى تولَّدَا
دعوتَ ، فقال النَّصرُ لبَّيكَ ماثِلاً ... ولم تكُ كالداعى يجاوبه الصَّدَى[1]
وأحمدْتَ عُقْبَى الصَّبْرِ فى دَرَكِ المُنَى ... كما بلغ السَّارى الصباحَ فأحْمَدَا
أعبَّادُ ! يا أوْفَى الملوكِ بذمةٍ ... وأرعاهُمُ عَهْدًا وأطوَلَهمْ يَدَا
تباينتَ فى حَالَيْكَ : غُرْتَ[2] تواضعاً ... لتستوفىَ العَلْيا وأنجَدْتَ سُؤدُدَا
ولما اعتضَدْتَ اللهَ كنتَ مؤهَّلاً ... لديه لأن تُحْمَى وتُكفَى وتُعضَدَا
وكم ساعدَ الأعداءَ أوّلَ مُطمَعٍ ... رأوك بعُقْباهُ أحقَّ وأسْعَدَا
فلا ظافرٌ إلا إلى سَعْدِك اعْتَزَى ... ولا سائسٌ إلا بتدبيرك اقتَدَى
ضلالاً لمفتونٍ[3] سمَوْتَ بحالِهِ ... إلى أنْ بَدَتْ بين الفراقد فرْقَدَا
فزَلَّ وقد أمطيتَه ثَبَجَ السُّها[4] ... وضَلَّ وقد لقيته قَبَسَ الهُدَى
تجنَّى فأهْدَيْتَ النَّصيحةَ مَحْضَةً ... ولَجَّ فوالَيْتَ العِقابَ مُرَدَّدَا
رأى أنه أضْحَى هِزَبْرًا[5] مُصَمِّماً ... فلم يَعْدُ أن أمسى ظَليماً[6] مُشرَّدَا
يودُّ إذا ما جنَّه الليلُ أنهُ ... أقام عليه آخرَ الدهر سَرْمدا
يحاذرُ أن يُلفَى قتيلاً مُعفرًا[7] ... إذا الصُّبْحُ وافى أو أسيراً مُقيَّدَا

---

(١) الصدى هنا : رجع الصوت .

(٢) غرت : من الغور وهو منخفض الوادى ، فهى ضد أنجدت .

(٣) يريد ابن الأفطس .

(٤) ثبج السها : أعلاه ، والسها : نجم .

(٥) هزبر : أسد .

(٦) الظليم : ولد النعام .

(٧) معفرا : من العفار ، وهو التراب .

لبئسَ الوفاء استنّ[١] فى ابن عقيدِه[٢] عشيّةَ لم يُصْدِره من حيث أوْرَدا
قَرِينٌ له أغواهُ حتى إذا هَوَى تبرّأ يعتدُّ البراءةَ أرْشَـــدا
فأصبحَ يبكيه المصابُ بشُكْلِهِ بُـكاء لَبيدٍ[٣] حين فارقَ أرْبَدَا
فداء لإسماعيـــلَ كلُّ مُرَشَّحٍ إذا جُشِّم الأمرَ الجسيم تبلّدَا
كرهتَ لسيف المُلكِ أُلفةَ غِمْدِه وقلَّ غَناء السيف ما كان مُغْمَدا
ولم ترَ للشِّبْل الإقامةَ فى الشَّرَى[٤] فجدَّ افتراساً حين أَصْحَرَ[٥] للعِدَا
هُمامٌ إذا حاربْتَ فارْفَع لواءهُ فما زال منصورَ اللواء مُؤَيَّدَا
ولم نر سَيْفاً باتك[٦] الحدِّ قَبْلَهُ تنــاول سَيْفاً دونه فتقلَّدَا
لئن أنجزَتْ منــه الشمائلُ آخِراً لقد قدَّمتْ منه المخايلُ مَوْعدَا
قَرَرْتَ به عَيْناً ! فـكم سادَ عِتْرَةً وكم سارَ سُلْطاناً وكم زانَ مَشْهَدَا
وأُعطِيتُما فيما تُرِيغـــانهِ[٧] الرِّضَا وبُلِّغتما مما تُريدانه المَـــدَى

---

(١) استنّ : اعتنق .
(٢) عقيده : حليفه وهو إسحق بن عبد الله أمير قرمونة .
(٣) اشتهر لبيد الشاعر الجاهلى ببكائه على أخيه أربد ورثائه له .
(٤) الشرى : الغيل أو الغابة .
(٥) أصحر : برز .
(٦) باتك : قاطع .
(٧) تريغانه : تطلبانه .

٤ — نماذج الرثاء

تعزية

نظم ابن زيدون هذه القصيدة حينما توفى أبو الحزم وولى ابنه أبو الوليد من بعده سنة ٤٣٥ للهجرة وهو فيها يعزى عن الفقيد، ويعدد مناقبه، ويعرض لفضائل أبي الوليد، ويلمح للصنيعة التي يريدها منه. ويظهر أنه كان يعجب بصياغة هذه القصيدة، فرثى أم أبي الوليد بأخرى على وزنها ورويها، وكرر فيها كثيراً من أبياتها. ولما توفى المعتضد عزى المعتمد وهنأه بقصيدة على وزنهما ورويهما، واستعان فيها هي الأخرى بالقصيدتين الأوليين، ولاحظ ذلك ابن بسام فتمثل بقول أبي العلاء:

رُبَّ لَحْدٍ قد صارَ لَحْدًا مرارًا ضــاحكٍ من تزاحم الأضْدادِ

وربما كان السبب الذى حدا بابن زيدون إلى ذلك أنه أعجب بهذه القصيدة التى نحن بصددها فتقيد بألفاظها ومعانيها كلما حاول رثاء مهمًا، وهى تجرى على هذه الصورة:

ألم ترَ أنَّ الشمس قد ضمَّها القبْرُ	وأنْ قد كفانا فقْدَها القَمرُ البَدْرُ
وأنَّ الحيَا[1] إن كان أقلَعَ صَوْبُهُ[2]	فقد فاض للآمال فى إثْرِهِ البَحْرُ
إساءةُ دَهْرٍ أحْسَنَ الفِعْلَ بَعْدَها	وذَنْبُ زمانٍ جاء يَتْبَعُهُ العُذْرُ
فلا يَتَهنَّ الكاشحون[3] فما دَجا	لنا اللَّيْلُ إلا ريْثما طَلَعَ الفَجْرُ
وإن يكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فمحمَّدٌ	خليفته العَدْلُ الرِّضَا وابنه البَرُّ
فتًى يجمَعُ المَجْدَ المفرَّقَ همُّهُ	ويُنظَم فى أخلاقهِ السُّؤدُدُ النَّثْرُ
أهابتْ إليه بالقـلوبِ محبَّةٌ	هىَ السِّحْرُ للأهواء بل دونها السِّحْرُ
سرَتْ حيثُ لا تَسْرِى من الأنْفُسِ المُنَى	ودَبَّتْ دَبِيباً ليس تُحْسِنُهُ الخَمْرُ

---

(١) الحيا: المطر.

(٢) صوبه: انصبابه ودفقه المطر.

(٣) الكاشحون: الأعداء.

لَبِسْنا لديه الأمْنَ تَنْدَى ظِلالُهُ ... وزَهْرَةَ عَيْشٍ مثلما أيْنَعَ الزَّهْرُ

وعادتْ لنا عاداتُ دُنْيا كأنهــا ... بها وَسَنٌ أو هزَّ أعْطَافَها سُكْرُ

مَليكٌ له مِنَّا النصيحةُ والهوى ... ومنه الأيادى البِيضُ والنِّعمُ الخُضْرُ

فقل للحيارَى : قد بَدَا عَلَمُ الهُدَى ... وللطامع المغرور : قد قُضِىَ الأمْرُ

أبا الحَزْمِ قد ذابتْ عليك من الأسَى ... قلوبٌ مُنَاها الصَّبر لو ساعدَ الصَّبْرُ

دَعِ الدَّهْرَ يَفْجَعْ بالذخائر أهلَهُ ... فما لنفيسٍ مذ طواكَ الرَّدَى قَدْرُ

تهونُ الرّزايا بعــدُ ، وهْى جليلةٌ ... ويُعْرَف مذ فارقتَنا الحادثُ النُّكْرُ

فَقَدْ ناكَ فِقْدانَ السحابة لم يَزَلْ ... لها أثَرٌ يُثنِى به السَّهْلُ والوَعْرُ[1]

مَساعيك حَلْىٌ لليــالى مُرَصَّعٌ ... وذِكْرُك فى أرْدانِ[2] أيامها عِطْرُ

فلا تَبْعَدَنْ إن المنيَّــةَ غايةٌ ... إليها التناهِى طال أو قَصُر العُمْرُ

عزاءً فَدَتْك النفسُ عَنْهُ فإن ثوَى ... فإنك لا الوانى ولا الضَّرِعُ[3] الغَمْرُ

وما الرُّزْءُ فى أن يُودَعَ التُّرْبَ هالكٌ ... بل الرُّزْءُ كلُّ الرُّزْءِ أن يَهلكَ الأجْرُ

أمامك من حفظ الإله طليعةٌ ... وحولك من آلائه عَسْكَرٌ مَجْرُ[4]

وما بك من فَقْرٍ إلى نصْرِ ناصرٍ ... كفتكَ من الله الكَلاءة[5] والنَّصْرُ

لك الخيرُ إنى واثقٌ بك شاكرٌ ... لِمَثْنَى[6] أياديك التى كُفْرُها الكُفْرُ

---

(١) مأخوذ من قول الشاعر :

فاذهب كما ذهبت غوادى مزنــة ... أثــنى عليهــا السهل والأوعــار

(٢) أردان : أكمام .

(٣) الضرع : الضعيف ، والغمر : من لم يجرب الأمور .

(٤) المجر : الكثير .

(٥) الكلاءة : الرعاية .

(٦) مثنى : مضاعف .

تحامَى العِدا ، لما اعتلقْتُك ، جانبى ... وقال المُناوِى: شبَّ عن طَوْقِهِ عمرو[1]

يَلينُ كلامٌ كان يَخْشُنُ منهمُ ... ويَفتُرُ نحوى ذلكَ النظر الشَّزْرُ[2]

فصدِّق ظُنُونًا لى وفِىَّ فإننى ... لأهْلُ اليد البيضاء منك ولا فَخْرُ

ومَنْ يَكُ الدنيا وللوَفْر[3] سَعْيُهُ ... فتقريبُك الدنيا وإقبالُكَ الوَفْرُ

صبر جميل

ماتت أم المعتضد ، فرثاها الشاعر بقصيدة طويلة تحدث فيها عن تقواها ومساعدتها للفقراء والبؤساء وأنها لم تمت إلا وهى قريرة العين بابنها وسلطانه على البلاد والعباد ، وفى أثناء ذلك كان يعزيه ويدعوه إلى الصبر والرضا بالأمر الواقع ، ومن قوله فيها :

أُصِبْنا بما لو أنّ هَضْبَ مُتالِعٍ[4] ... أُصيبَ به لانهدَّ أو لتَضَعْضَعَا

مَنارٌ من الإيمان لم يَعْدُ أن هَوَى ... وحَبْلٌ من التَّقْوَى وَهَى فتقطّعا

وشَمْسُ هُدًى أمْسَى لها التُّرْبُ مَغْرِبًا ... وكان لها المحرابُ فى الخِدْرِ مَطْلَعا

لتَبْكِ الأيامَى[5] واليتامَى فقيدةً ... هى المُزْنُ أحْيا صَوْبُه ثم أقْشَعا[6]

---

(١) هذا مثل قديم ، ومعناه واضح .

(٢) النظر الشزر : النظر الغاضب وما فيه إعراض .

(٣) الوفر : المال .

(٤) متالع : جبل فى نجد .

(٥) الأيامى : جمع أيم وهى من لا زوج لها .

(٦) أقشع صوب المزن : انكشف بعد صب المطر وهطوله .

مُسَبِّحَةَ الآناء[1] قانتةَ الضُّحَى ... ثَوَتْ فَثَوَى مَغْنى التأوُّهِ بلقعاً[2]
تَبِيتُ مع الإخبات[3] مُسْعَرَةَ الحشا ... تقيَّةَ مَنْ يَخْشَى إلى الله مَرْجِعاً
إذا ما هى استوفَتْ من البرِّ غايةً ... تأَتَّتْ لأخرى ، لا ترى تلك مَقْنَعاً
أَصَرْف[4] الرَّدَى لوأنَّ للسَّيفِ مَضرِباً ... لما رُعْتَنا أو أنَّ فى القوس مَنْزَعا
ولكن وطئتَ المَلْكَ من حيث لا يُرَى ... فلم يستطع للحادث الحتمِ مَدْفعاَ
لَعَمْرُ التى ودَّعْتَ أمسِ مُفارقاً ... لقد وَرَدَتْ حَوْضَ السعادة مَشْرعا[5]
تَمَنَّتْ وفاةً فى حياتك بعد ما ... حَشَدْتَ لها الآمالَ مَرْأًى وَمَسْمَعاً
فوفِّيتَها ما لم تَدَعْ لضميرها ... إلى غاية من بعــدِهِ مُتَطَلَّعاً
تروح أميراً فى البلاد مُحكَّماً ... وتغدو شفيعاً فى الذنوب مشَفَّعاً
عزاءً ، فَدَتْكَ النفسُ ، عَزْمَ مُسَلِّمٍ ... لموقع أمرٍ لم يَزَلْ مُتَوَقَّعاً
متى ظَنَّتِ الأيامُ أنك جازعٌ ... أو استشعرتْ فى فَلِّ صَبْرِكَ مَطْمَعاً ؟
وما كنتَ أهلا أن يُصِيبك حادثٌ ... فتصبحَ منه مُقْصَدَ[6] القلبِ مُوجَعاً
فلولاك لم يَسْمح من الدهر جانبٌ ... ولا اهتز أعطافاً ولا لانَ أخدَعا[7]

---

(١) الآناء : آناء الليل ، وهى ساعاته .

(٢) يقول فى هذا الشطر: إنها ثوت أى ماتت ، فأصبح مغنى التأوه أى منزله قفراً . وكل هذا كناية عن قنوتها وعبادتها .

(٣) الإخبات : الخشوع والتقوى .

(٤) صرف الردى : حدثانه ونائبته ، والمنزع بكسر الميم : السهم بعيد المرمى .

(٥) المشرع : المورد المطروق .

(٦) مقصد : مصاب ومنكسر .

(٧) اهتزاز العطف كناية عن السرور والرضا ، ولين الأخدع وهو عرق الوريد كناية عن الانقياد والخضوع .

ولا زلتَ ممنوعَ الحِمَى مُسْتقَفَ المُنى إذا كان شانيكَ المصابَ المفجَّما
ودُمْتَ مُلقًّى أنجُمَ السَّعْدِ باقياً لدينٍ ودُنيا أنت فَخْرُهُما مَعاَ

٥ — الرسالة الهزلية

أما بعد أيُّها المُصاب بعقله ، المورَّط بجهله ، البَيِّن سَقَطه[١] ، الفاحش غَلَطُه ، العاثرُ فى ذَيْل اغتراره ، الأَعمَى عن شَمْس نهاره ، الساقطُ سقوط الذُّباب على الشراب ، المتهافتُ تهافُتَ الفَراش فى الشِّهاب[٢] ، فإنَّ العُجْبَ[٣] أكْذَبُ ، ومعرفَةَ المرء نفسَه أصوَب . وإنك راسلتنى مُسْتَهْدِياً من صلتى ماصَفِرَتْ[٤] منه أيدى أمثالك ، متصدياً من خُلَّتى[٥] لما قُرِعتْ[٦] دونه أُنُوفُ أشكالك ، مُرْسِلاً خليلتك[٧] مُرْتَادة ، مستعملا عشيقتك قَوَّادة ، كاذباً نفسَك أنك ستنزل عنها إلىَّ ، وتخلُفُ بعدها علىَّ :

ولستَ بأوَّلِ ذِى هِمَّةٍ دَعَتْهُ لما لَيسَ بالنائلِ[٨]

---

(١) سقط القول : خطؤه .

(٢) الشهاب : الشعلة من النار .

(٣) العجب : ما يعجب الإنسان من نفسه ، ولذلك أخبر عنه بأنه أكذب أى أنه يدعو المرء إلى أن يتخيل ما لا صحة له فيكذب نفسه .

(٤) صفرت : خلت .

(٥) خلتى : مودتى .

(٦) القرع : الضرب .

(٧) يريد بالخليلة الرسول التى كان يرسل بها ابن عبدوس إلى ولادة .

(٨) البيت للمتنبى ، والنائل : ما ينال ، ومعنى البيت : ليس هو أول من هم بما امتنع عليه ورام ما لا سبيل إليه .

ولا شك أنها قَلَتْك[١] إذ لم تَضِنَّ بك ، ومَلَّتك إذ لم تغرْ عليك ، فإنها أعذرت[٢] فى السفارة لك ، وما قصَّرتْ فى النيابة عنك ، زاعمةً أن المروءة لفظٌ أنت معناه ، والإنسانيةَ اسم أنت جِسْمُهُ وهَيُولَاه[٣] ، قاطعةً[٤] أنك انفردتَ بالجمال ، واستأْثرْتَ بالكمال ، واستَعْلَيْتَ فى مراتب الجلال ، واستوليت على محاسن الخِلال ، حتى خيِّلَتْ أن يوسف عليه السلام حاسَنك[٥] فغضَضْتَ منه ، وأن امرأة[٦] العزيز رأتك فسَلَتْ عنه ، وأن قارونَ[٧] أصاب بعض ما كَنَزْتَ ، والنَّطِف[٨] عَثَر على فضل ما ركَزْتَ[٩] ، وكسرى[١٠] حَمَلَ غاشيتَك[١١] ، وقَيْصَر[١٢] رَعَى ماشيتَك ، والإسكندرَ قَتَل دارًا[١٣] فى طاعتك ، وأَرْدَشيرَ[١٤] جاهد ملوك الطوائف لخروجهم عن جماعتك ، والضحاك استدعى مُسالَمتك ، وجَذِيمة[١٥] الأَبْرَشَ تَمَنَّى منادمتك ،

---

(١) قلتك : أبغضتك .
(٢) أعذر : أتى بما صار به معذوراً أى أن صاحبته بلغت الجهد فى السفارة ، وهى المشى فى الصلح .
(٣) هيولاه : مادته .
(٤) قاطعة : موقنة .
(٥) حاسنك : باراك فى الحسن .
(٦) امرأة العزيز : معروفة فى قصة يوسف وأنها شغفت به حبا .
(٧) قارون : من قوم موسى واشتهر بالكنوز والثروة الكثيرة .
(٨) النطف : رجل من تميم نهب أموالا لكسرى فى الجاهلية ، فأثرى .
(٩) ركز : من الركز وهو المال الدفين .
(١٠) من ملوك الفرس .
(١١) الغاشية : غطاء السرج ، أو المظلة .
(١٢) ملك الروم .
(١٣) ملك الفرس فى عهد الإسكندر وقد قتله .
(١٤) أردشير من ملوك الفرس الأولين ومثله الضحاك .
(١٥) من ملوك العرب فى الجاهلية .

وشِيرينَ[١] قد نافست بُورَانَ فيكِ ، و بِلْقِيس[٢] غابَرَتِ الزَّبَّاء عليك ، وأن مالك[٣] بن نُوَيْرَة إنما رَدِفَ لك ، وعُرْوَةَ[٤] بن جعفرٍ إنما رَحَل إليكِ ، وكُلَيب[٥] بن ربيعة إنما حَمَى المَرْعى بعِزَّتك ، وجَسَّاساً[٦] إنما قتله بأنَفَتك ، ومهلهلا[٧] إنما طلب ثأره بهمَّتك ، والسَّمَوْءل[٨] إنما وَفَى عن عهدك ، والأَحْنَف[٩] إنما احْتَبَى[١٠] فى بُرْدَتك ، وحاتماً إنما جاد بوَفْرك[١١] ، ولَقِيَ الأضيافَ ببِشْرك ، وزَيْد[١٢] بن مُهَلْهِل إنما ركب بفَخذَيْك ، والسُّلَيْك[١٣] بن السُّلَكَة إنما عدَا على رجليك ، وعامر[١٤] بن مالك إنما لاعب الأسنَّةَ بيديك ، وقَيْسَ[١٥] بن زُهَيْر إنما استعان بدهائك ، وإياس[١٦] بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ، وسَحْبانَ[١٧] إنما تكلم

---

(١) شيرين : زوجة أبرويز ملك الفرس وبوران ابنته .

(٢) بلقيس ملكة سبأ ، والزباء ملكة تدمر .

(٣) مالك : من شجعان تميم فى الجاهلية والإسلام ، قتل فى حروب الردة ، والردافة أن يكون للشريف تابع يجلس وراءه أو عن يمينه .

(٤) اشتهر بالرحلة إلى الملوك ، ولذلك يسمى عروة الرحال .

(٥) سيد بكر وتغلب .

(٦) صهر كليب وقاتله .

(٧) مهلهل أخو كليب وصاحب ثأره ، وقد أثار بطلب هذا الثأر حرب البسوس المشهورة

(٨) اشتهر السموءل صاحب حصن الأبلق الفرد بالوفاء ، فضرب به المثل فيه .

(٩) سيد تميم البصرة فى الإسلام وكان يشتهر بحلمه .

(١٠) احتبى : اشتمل أو جلس القرفصاء .

(١١) الوفر : المال .

(١٢) هو زيد الخيل : من فرسان الجاهلية لحق الإسلام وأسلم .

(١٣) السليك : عداء مشهور فى الجاهلية .

(١٤) يلقب عامر بملاعب الأسنة وهو من شجعان العرب فى جاهليتهم .

(١٥) قيس : سيد عبس وداهيتها فى حروبها .

(١٦) قاضى البصرة فى أواخر العصر الأموى ، ويشتهر بذكائه .

(١٧) سحبان : من بلغاء العرب مات فى عصر معاوية .

بلسانك ، وعمرو[١] بن الأهتم إنما سَحَر ببيانك ، وأن الصُّلحَ[٢] بين بَكْرٍ وتَغْلِب تَمَّ برسالتك ، والحَمَالات[٣] بين عَبْسٍ وذُبْيان أُسْنِدَت إلى كَفَالتك ، وأن احتيال هَرِمٍ[٤] لعلقمة وعامر حتى رَضِيا كان ذاك عن إشارتك ، وجوابه لعمر[٥] وقد سأله عن أيهما كان يَنْفِر وقع عن إرادتك ، وأن الحجاج[٦] تقلَّد ولاية العراق بِجَدِّك ، وقُتَيبة[٧] فتح ما وراء النهر بسَعْدِك ، والمهلَّب[٨] أوهن شوكة الأزارقة[٩] بأَيْدِك ، وفرَّق[١٠] ذات بَيْنهم بكَيْدِك ، وأن هِرْمِس[١١] أعطَى بَلِينُوسَ[١٢] ما أَخَذ منك ، وأفلاطون أورد على أرسطاليس[١٣] ما نَقَل عنك ، و بَطْلَيمُوس[١٤] سَوَّى الأَصْطُرلابَ

---

(١) عمرو : من سادات تميم وخطبائها فى الجاهلية والإسلام .

(٢) هو صلح حرب البسوس .

(٣) الحمالات : الديات وكان قد احتملها هرم بن سنان ممدوح زهير والحارث بن عوف فى قصة مشهورة .

(٤) هو هرم بن قطبة كان أحد من يحتكم إليهم العرب فى الجاهلية لعقله ، واحتكم إليه علقمة وابن عمه عامر بن الطفيل ، وهما جميعاً من بنى عامر بن صعصعة ، فاحتال لهما حتى لا يحكم لأحدهما على الآخر ، فتكون حرب بين عشيرتيهما .

(٥) هو عمر بن الخطاب ، وقد سأله بعد إسلامه أيهما تنفر الآن لو احتكما إليك؟ فقال: لو قلت الآن كلمة لنشبت الحرب بين الحيين ، وتنفر : تغلب فى المنافرة .

(٦) والى العراق المشهور .

(٧) قتيبة : هو قتيبة بن مسلم بطل حروب الشرق فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان قد ولاه على خراسان ، فأظهر بطولة نادرة فى الحروب هناك .

(٨) المهلب : أشهر قواد الأمويين فى حروب الخوارج .

(٩) الأزارقة : أحد فروع الخوارج وهم أتباع نافع بن الأزرق ، والأيد : القوة .

(١٠) فرق ذات بينهم : كناية عن أنه دوخهم وأضعفهم .

(١١) هرمس : من أنبياء الصابئة .

(١٢) بلينوس : خليفة هرمس .

(١٣) أفلاطون أستاذ أرسطاليس ، وهما فيلسوفان يونانيان مشهوران .

(١٤) بطليموس : فيلسوف يونانى اشتهر بالفلك والهندسة والجغرافيا ، والأصطرلاب : آلة لرصد النجوم .

بتدبيرك ، وصَوّرَ الكُرَة على تقديرك ، وأبقراط[١] عَلِمَ العِلل والأمراض بلطف حِسِّك ، وجالينوسَ[٢] عرف طبائع الحشائش بدقة حَدْسِكَ ، وكلاهما قلّدك فى العلاج ، وسألك عن المِزاج ، واستوصفك تركيبَ الأعضاء ، واستشارك فى الداء والدواء ، وأنك نَهَجْتَ لأبى مَعْشَرٍ[٣] طريق القضاء ، وأظهرْتَ جابرَ[٤] بن حَيَّان على سِرِّ الكيمياء ، وأعطيت النظَّام[٥] أصْلاً أدْرك به الحقائق ، وجعلت لِلكِنْدِى[٦] رَسْماً استخرج به الدقائق ، وأن صناعةَ الألحان اختراعُك ، وتأليف الأوتَار والأنقار توْليدُك وابتداعُك ، وأن عبد[٧] الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل[٨] بن هرون مُدَوِّن كلامك ، وعمرو[٩] بن بَحْر مُسْتَمْليك ، ومالك[١٠] بن أنس مُسْتَفْتيك ، وأنك الذى أقام البراهين ، ووضع القوانين ، وحدَّ الماهية[١١] وبَيَّن الكيفيَّة والكَمِّيَّة ، وناظر فى الجوْهَر والعرَض ، ومَيَّزَ الصحَّة من المرض ، وفَكَّ المُعَمَّى[١٢] ، وفَصَل بين الاسم والمُسَمَّى ، وصَرَّف وقسَّم ، وعَدَّل وقوّم ، وصَنَّف الأسماء

---

(١) من أطباء اليونان .

(٢) آخر الحكماء وخاتم أطباء اليونان .

(٣) أبو معشر : منجم عباسى مشهور ، والقضاء هنا : القدر ؛ وطريقاه : الخير والشر

(٤) جابر : من أعلام العرب فى الكيمياء ، ويقال بل هو اسم منحول .

(٥) النظام : أستاذ الجاحظ ، وكان يشتهر بالذكاء والعمق فى الفهم .

(٦) الكندى : أول فلاسفة العرب .

(٧) عبد الحميد : كاتب مروان بن محمد وهو أبلغ الكتاب المتقدمين ولذلك قيل بدئت الرسائل بعبد الحميد .

(٨) سهل : بليغ عباسى مشهور .

(٩) هو الجاحظ : أفصح كتاب العرب غير مدافع .

(١٠) هو مالك صاحب المذهب المشهور الذى دانت به الأندلس وبلاد المغرب .

(١١) يريد أنه حد الحدود والتعريفات ، وهو تهكم واضح .

(١٢) المعمى : الملغز من اللغز .

والأفعال ، و بوّب الظَّرْف والحال ، وبَنَى وأعْرَب ، ونَفَى وتَعَجَّب ، ووَصَل وقطَع ، وثنّى وجَمَع ، وأظْهَر وأضمر ، واستفهم وأخْبَر ، وأهْمَل وقيَّد ، وأرسل وأسْنَدَ[١] ، و بَحث ونَظَر ، وتصفَّح الأديان ، ورجَّح بين مذهبي[٢] مانى وغَيلان، وأشار بذَبْح الجعْد[٣] ، وقَتْل بَشَّار بن بُرْد ، وأنك لو شِئْت خرَقْتَ العادات ، وخالَفْتَ المعهودات ، فأحَلْتَ البحار عَذْبَة ، وأعدت السِّلام[٤] رَطْبَة ، ونقَلْتَ غَداً فصار أمْسَا ، وزدت فى العناصر فكانت خَمْسا[٥] ، وأنك المقول فيه : كلُّ الصَّيْد فى جَوْف[٦] الفَرَا ، وَ :

ليسَ على الله بمُسْتَنْكَرٍ   أن يجمع العالمَ فى واحِدِ[٧]

والمعنىُّ بقول أبى تمام :

فلو صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها   على ما فيك من كَرَم الطِّباعِ

والمراد بقول أبى الطيب :

ذُكِرَ الأنامُ لنا فكانَ قصيدةً   كنتَ البديعَ الفَرْدَ من أبْيَاتها

فكدَمْتَ فى غير مَكْدَم[٨] ، واسْتَسْمَنْتَ ذا وَرَم ، ونفَخْتَ فى غير

---

(١) إشارة إلى المسند فى الحديث ، والمرسل : وهو ما لم يذكر فيه أول السند .

(٢) مانى : صاحب نحلة دينية عند الفرس ، وكان ذلك قبل الإسلام ، وهو يقول بأن هناك إلهين : إله النور وإله الظلام ، وغيلان ، أول من تكلم فى القدر بين المسلمين فى العصر الأموى ، وهو دمشق

(٣) الجعد : مولى لبنى الحكم ، تكلم فى القدر وغيره ، وتجاوز الحدود ، فقتله خالد القسرى فى العراق أثناء ولايته هناك .

(٤) السلام : الحجارة الصلبة .

(٥) العناصر فى رأى الفلاسفة أربعة : الماء والهواء والنار والتراب .

(٦) مثل يضرب فى الشىء الذى يزيد غيره أو يفضله ، والفرا : حمار الوحش .

(٧) هذا البيت لأبى نواس من قصيدة يمدح بها الفضل بن يحيى وزير هرون الرشيد .

(٨) مثل يضرب لمن يطلب شيئاً يعجز عنه ، والكدم : العض ، والمكدم : موضع العض .

ضَرَم[١] ، ولم تجد لريحٍ مَهَزًّا ، ولا لشَفرَةٍ مَحَزًّا[٢] ، بل رضيتَ من الغنيمة بالإياب[٣] ، وتمنَّيت الرجوعَ بخُفَّىْ حُنَيْن[٤] ، لأنى قلت : « لَقَدْ هان من بالَتْ عليه الثعالبُ[٥] » ، وأنشدت :

على أنها الأيامُ قد صِرْنَ كلُّها عجائبَ حتى ليس فيها عجائبُ[٦]

ونَخَرتُ[٧] وبَسَرْتُ[٨] ، وعَبَستُ[٩] وكفرْت ، وأبْدأْتُ[١٠] وأعَدْتُ ، وأبْرَقْت وأرْعَدْت[١١] ، « وهممتُ[١٢] ولم أفعلْ وكِدْتُ ولَيْتَنى » ، ولولا أن للجِوار ذِمَّة ، وللضِّيافة حُرْمَة ، لكان الجوابُ فى قَذَال الدُّمُسْتُق[١٣] ، والنعلُ حاضرةٌ إن عادت العقرب ، والعقوبة ممكِنة إن أصرَّ المذنب .

وهَبْها لم تلاحظْكَ بعَيْنٍ كليلةٍ عن عيوبك ، مِلْؤُها حَبيبُها[١٤] ، وحَسَنٌ

---

(١) نفخت فى غير ضرم : أى فى رماد لا فى نار .

(٢) المحز : مكان الحز أى القطع .

(٣) مثل يضرب لمن قنع بسلامة نفسه فى مطلبه .

(٤) مثل يضرب لمن يرجع بالخيبة .

(٥) يقال إن رجلا من بنى سليم كان يعبد صنما فبالت عليه الثعالب ، فكسره ، وسارع إلى الإسلام .

(٦) البيت من قصيدة فى الرثاء لأبى تمام .

(٧) نخرت : من النخير وهو صوت الأنف عند الغضب .

(٨) بسر : عبس وغضب .

(٩) عبس : قطب وجهه .

(١٠) أبدأت وأعدت : كررت كلاماً يسوءك .

(١١) يقال أرعد وأبرق إذا هدد .

(١٢) هممت : أى هممت بشىء خطير كالقتل ونحو ذلك .

(١٣) الدمستق : من قواد الروم هزمه سيف الدولة ، يريد ابن زيدون أنه لولا الحرمة لفعل بهذه المرأة فعل سيف الدولة بالدمستق ، والقذال : القفا .

(١٤) ملؤها حبيبها : ترى حبيبها كل شىء فى الحياة .

فيها مَنْ تودّ ، وكانتْ إنما حَلّتك بحُلاك ، ووَسَمَتك بسماك ، ولم تُعِرْكَ شهادة ، ولا تكلّفتْ لك زيادة ، بل صَدَقَتْ سِنّ[1] بَكْرِها فيما ذكرته عنك ، ووَضَعتِ الهِنَاء مواضع النُّقَب[2] بما نسبتْه إليك ، ولم تكن كاذبةً فيما أثْنَت به عليك ، فالمُعَيْدِيُّ تسمعَ به خيرٌ من أن تراه ، هَجِينُ[3] القذال ، أرْعَنُ السِّبال[4] ، طويل العُنق والعِلاوة[5] ، مُفْرِط الحُمْق والغَباوة ، سيِّء الجابة[6] والسمع ، بغيضُ الهيئة ، سخيف الذهاب والجيئة ، ظاهر الوَسْوَاس مُنْتِنُ الأنفاس ، كثير المعايب ، مشهور المَثالب . كلامك تَمْتَمَةٌ[7] ، وحديثك غمغمة[8] ، و بيانك فهفهة[9] ، وضَحِكُكَ قهقهة ، ومَشْيُكَ هَرْوَلة ، وغِناك مَسْألة[10] ، ودينك زَندقة ، وعلمك مَخْرَقة[11] :

مَساوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَاني   لما أُمْهِرْنَ إلا بالطَّلاقِ[12]

حتى إن باقِلا[13] موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِنَ بك ، وهَبَنَّقَة[14] مستوجبٌ

---

(١) يقال صدقت سن بكرها أى لم تقل إلا صدقاً ، والبكر : الفتى من الإبل .

(٢) مثل يضرب لمن يضع الأمر فى موضعه ، والهناء : القطران ، والنقب : مبادئ الجرب فى البعير وكانوا يداوونه بالقطران .

(٣) هجين القذال : كناية عن خسة الأصل ، والقذال : القفا .

(٤) السبال : الشارب ، يريد أنه أحمق .

(٥) العلاوة : أعلى الرأس . وطول العنق والرأس عند العرب دليل الحماقة .

(٦) الجابة : الإجابة .

(٧) التمتمة : التردد فى التاء وهى من معايب النطق .

(٨) الغمغمة : أن يسمع الصوت ولا تتبين الكلمات والحروف .

(٩) الفهفهة : عى فى النطق بترديد الفاء فى الكلام .

(١٠) يريد أن ماله من سؤال الناس .

(١١) مخرقة : من الخرق وهو الحمق .

(١٢) البيت لأبى تمام من قصيدة فى الهجاء .

(١٣) باقل : يضرب به المثل فى العى .

(١٤) هبنقة : يضرب به المثل فى الحمق وضعف العقل .

لاسمَ العقل إذا أُضيف إليك ، وطُوَيْساً(١) مأثورٌ عنه يُمْن الطائر إذا قِيسَ عليك ، فوجودك عدَم ، والاغتباط بك نَدَم ، والخيبة منك ظَفَر ، والجنَّة معك سَقَر(٢) . كيف رأيتَ لؤمك لكرمى كِفاء(٣) ، وضَعَتك لشَرفى وفاء ؟ وأنى جهلتَ أن الأشياء إنما تنجذبُ إلى أشكالها ، والطَّيْرَ إنما تقع على ألَّافها ؟ وهلا علمت أن الشَّرْق والغَرْبَ لا يجتمعان ، وشَعَرْتَ أن المؤمن والكافر لا يتقاربان . وقلت : الخبيثُ والطيبُ لا يستويان(٤) ، وتمثَّلْتَ :

أيها المنكح الثُّرَيَّا سُهَيلاً   عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يلتقيانِ(٥)

وذكرتَ أنى عِلقٌ(٦) لا يباع ممن زاد ، وطائرٌ لا يصيده من أراد ، وغَرَضٌ لا يُصيبه إلا من أجاد ؟ ما أحسُبك إلا كنتَ قد تهيّأتَ للتَّهْنِئَة ، وترشَّحتَ للتَّرفِئة(٧) ! . ولولا أن جَرْحَ العَجْماء جُبار(٨) ، للقيتَ من الكواعب ما لاقى يَسار(٩) ، فما همَّ إلا ببعض ما به هَمَمْتَ ، ولا تعرَّض إلا لأيْسَر ما له تعرَّضْتَ ،

---

(١) مغن بالمدينة فى العصر الأموى كانوا يتشاءمون منه ، وله نوادر فى الشؤم مشهورة .

(٢) سقر : جهنم .

(٣) كفاء : مكافئاً ومناظراً .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى (لا يستوى الخبيث والطيب) .

(٥) البيت لابن أبى ربيعة قاله حين تزوجت الثريا سهيل بن عمر بن عبد العزيز .

(٦) العلق : النفيس .

(٧) الترفئة : التهنئة بالزواج .

(٨) هذا نص حديث للرسول صلى الله عليه وسلم ، والعجماء : البهيمة ، والجبار : الدم الهدر ، ومعنى الحديث أنه لا قصاص فى جرح البهيمة ، وضرب به ابن زيدون المثل للدلالة على الاستهانة بابن عبدوس .

(٩) يسار : عبد آذته مولاته حين توهم أنها تحبه .

أين ادعاؤكَ روايةَ الأشعار ، وتعاطيك حفظَ السِّيَر والأخبار ، أما ثاب إليك قول الشاعر[١] :

بنو دارِمٍ أكفاؤهم آلُ مِسْمَعٍ ... وتَعقِد فى أكفائها الحَبِطاتُ

وهلا عَشَّيت[٢] ولم تغترّ ، وما أمَّنك أن تكون وافدَ البراجم[٣] أو ترجع بصحيفة المتلمّس[٤] ، وهل عَضَلَنِي[٥] هَمَّام بن مُرَّة فأقولَ : « زَوْجٌ من عُود خير من قُعود » .

ولعَمْرِى لو بَلَغْتُ هذا المبلغ لارتفعت عن هذه الخِطَّة ، وما رَضيتُ بهذه الخطَّة ، فالنارُ ، ولا العار ، والمنيَّة ولا الدَّنيَّة ، والحُرَّة تجوعُ ولا تأكل بثَدْيَيْها . وما كنتُ لأتخطَّى المِسْكَ إلى الرَّماد ، ولا لأمتَطِىَ الثَّوْر بعد الجَواد ، فإنما يَتَيَمَّم من لم يجد ماء ، ويَرْعَى الهشيم[٦] ، مَنْ عَدِمَ الجَميم[٧] ، ويَرْكَبُ الصَّعْب[٨] مَنْ لا ذلول له . ولعلك إنما غرَّكَ مَنْ عَلِمْتَ صَبْوَتى إليه ؟ وشَهِدْتَ

---

(١) هو الفرزدق ، والبيت واضح أنه فى هجاء حى الحبطات ، فقومه بنو دارم إنما يصهرون إلى بنى مسمع ، أما الحبطات فيصهرون إلى من يناظرونهم فى الخسة .

(٢) عشيت : رفقت ، وهو مثل يضرب للأخذ بالثقة .

(٣) وافد البراجم : رجل من تميم أحرقه عمرو بن هند .

(٤) يقال إن المتلمس وفد على أحد ملوك الحيرة فى الجاهلية فكتب له صحيفة إلى عامل من عماله ، وتناولها المتلمس وهو يظنه كتب له بجائزة ، فأقرأها شخصاً ، وكان هو أميا ، فعرفه أنه يأمر عامله بقتله والتمثيل به .

(٥) عضل : منع من الزواج ، وكان همام بن مرة منع بناته الأربع من الزواج ، وخرجن على رغبته فضرب به وبهن المثل .

(٦) الهشيم : النبت اليابس .

(٧) الجميم : النبت الرطب .

(٨) الصعب : الجامح الذى لا يطيع ، فهو ضد الذلول .

مُسَاعَفَتى له ، من أقمار العَصْر ، ورَيْحان المِصْر ، الذين هُم الكواكب عُلوّ هِمَم ، والرِّياضُ طيبَ شِيَم :

مَنْ تَلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهُم مثلَ النجوم التى يَسْرِى[1] بها السَّارِى

فَيَحِنَّ قِدْحٌ[2] ليس منها ، ما أنت وهُمْ ؟ وأنّى تقع منهم؟ وهل أنتَ إلا واو عمرو فيهم ، وكالوَشِيظَة[3] فى العَظْم بينهم .

وإن كنتَ إنما بَلَغْتَ قَعْر تابوتك[4] ، وتجافيت عن بعض قوتك ، وعَطَّرت أرْدَانك[5] ، وجَرَرْتَ هِمْيانك[6] ، واختَلْتَ فى مِشْيَتك ، وحَذَفْتَ فضول لِحيَتِك ، وأَصْلَحْتَ شاربك ، ومَطَطْتَ حاجبك ، ورقّقت خَطَّ عِذارِكَ[7] ، واستأنفت عَقْد إزارك[8] ، رجاء الاكتنان فيهم ، وطمعاً فى الاعتـــداد منهم ، فظنَنْتَ عَجْزاً ، وأخطأتَ الغرض . والله لو كَساك مُحَرِّقٌ[9] البُرْدَين ، وحَلَّتْكَ مارِيَةُ[10] بالقُرْطَيْن ، وقلّدك عمرو[11]

---

(١) يسرى : من السرى وهو المشى ليلا ، والبيت لشاعر يسمى عبيد بن العرندس .

(٢) مثل يضرب لمن يتشبه بقوم ليس منهم ، والقدح : أحد قداح الميسر .

(٣) الوشيظة : النتوء فى العظم .

(٤) كناية عن لزوم المنزل ، وقوله : وتجافيت عن بعض قوتك : أى أظهرت الكرم بما تستفضله من قوتك .

(٥) الأردان : الأكمام .

(٦) الهميان هنا : السراويل .

(٧) العذار : ما ينبت على الخد من الشعر .

(٨) كناية عن التجمل فى الثياب .

(٩) محرق : هو عمرو بن هند ملك الحيرة لقب بذلك لتحريقه مائة من العرب ، ويقال إن وفود العرب كانت عنده ؛ فأخرج بردين وقال : ليقم أعز العرب قبيلة فليأخذهما .

(١٠) بنت ظالم زوجة أحد ملوك الغساسنة بالشام ، اشتهرت بقرطين أهدتهما إلى الكعبة .

(١١) هو عمرو بن معد يكرب الزبيدى اشتهر بسيفه الصمصامة وأدرك الإسلام وأسلم وأبلى

الصَّمصامة ، وحملك الحارث[١] على النعامة ، ماشككتُ فيك ، ولا سترتَ[٢] أباك ، ولا كنتَ إلاَّ ذاك . وهَبْكَ سامَيْتَهم فى ذِرْوَةِ المجد والحسب ، وجاريتهم فى غاية الظَّرْف والأدب ، ألستَ تأوى إلى بيتٍ قعيدته[٣] لكاع ، إذ كلهم عَزَبٌ خالى الذِّراع[٤] ، وأينَ مَنْ أنفرِد به ممن لا غلبَ إلا على الأقلِّ الأخسِّ منه . وهل يجتمع لى فيك إلا الحشَف وسوء الكِيلَة[٥] ، ويقترن علىَّ بك إلا الغُدَّة والموتُ فى بيت سَلُولِيَّة[٦] .

تعالى الله يا سَلْمَ بْنَ عَمْرٍو أذلَّ الحِرْصُ أعناق الرجالِ

ما كان أخْلَقَكَ بأن تَقْدِرَ بذَرْعك[٧] ، وتَرْبَعَ بذلك على ظَلْعِك[٨] ولا تكن بَرَاقِشَ[٩] الدالَّة على أهلها وعَنْزَ السوء المستثيرةَ بِظِلْفِها لحتفها ، فما أراك إلا سَقَط العَشَاء بك على سِرْحان[١٠] ، وبك لا بظَبْيٍ أعفر[١١] . قد أعذرتُ إن أغنيتُ شيًّا ، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا :

---

(١) النعامة : فرس الحارث بن عباد البكرى سيد وائل فى الجاهلية .

(٢) ولاسترت أباك : أى لم تخف أباك ، أى لم تخف شأنك ونسبك .

(٣) القعيدة : الزوجة ، واللكاع : اللئيمة .

(٤) خالى الذراع : لا يملك شيئاً كما يقال خالى اليد وهو كناية عن خلو اليد عن الزوجة .

(٥) مثل يضرب فى الخلتين السيئتين تجتمعان ، والحشف : أردأ التمر .

(٦) دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على عامر بن الطفيل فظهر فى رقبته غدة ومات فى بيت سلولية (من بنى سلول) .فقال : غدة كغدة البعير ، وموت فى بيت سلولية . والبيت التالى لأبى العتاهية .

(٧) تقدر بذرعك : تقيس الأمر بجهدك .

(٨) مثل يضرب لمن يكلف نفسه ما لا يقدر عليه ، وتربع : تقيم ، والظلع : العرج فى البعير .

(٩) يشير إلى المثل : (جنت على أهلها براقش) وهى كلبة غزا أهلها قوم فلم يعرفوهم حتى نبحت ، فكانت شؤما عليهم .

(١٠) السرحان : الذئب .

(١١) مثل يضرب للشماتة ، والأعفر : الذى لونه لون العفار أى التراب .

إن العَصَا قُرِعَتْ لذى الحِلْمِ (١) والشىء تَحقِرُهُ وقد يَنْمِى (٢)

وإن بادرتَ بالنَّدامة ، ورجعت على نفسك بالملامة ، كنتَ قد اشتريت العافية لك ، بالعافية منك ، وإن قلتَ : جَعْجَعةٌ ولا طِحْنٌ (٣) ، وربَّ صَلَفٍ تحت الرَّاعدة ، وأنشَدْتَ :

لا يُؤْيِسَنَّكَ من مُخَدَّرَةٍ قولٌ تُغَلِّظُهُ وإن جَرَحَا (٤)

فعُدْتَ لما نُهِيتَ عنه ، وراجعتَ ما استَعْفَيْتَ منه ، بعثتُ من يُزْعِجك إلى الخضراء (٥) دَفْعا ، ويَستَحِثُّك نحوها وَكْزاً (٦) وصَفْعاً ، فإذا صرتَ إليها عَبِثَ أَكَّارُوها (٧) بك ، وتسلَّط نواطيرها (٨) عليك ، ذلك بما قدَّمت يداك لتذوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وترَى ميزانَ قَدْرِك :

فمَنْ جَهِلَتْ نَفسُهُ قَدْرَهُ رَأَى غَيْرُهُ منه ما لا يَرَى

٦ — الرسالة الجِدية

يامولاىَ وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه، واعتدادى به ، وامتدادى منه ، أبقاك الله ماضىَ حَدِّ العَزْم ، وارِىَ (٩) زَنْدِ الأمل ، ثابتَ عهد النعمة . إن سلبتنى

(١) مثل للتحذير .
(٢) مثل للتحذير أيضاً ، والبيت للحارث بن وعلة اليشكرى .
(٣) مثل لمن يتوعد ولا يفعل ، والطحن : الطحين . ورب صلف تحت الراعدة : مثل آخر بنفس المعنى . والسحاب الصلف : كثير الرعد قليل الماء . والراعدة : السحابة .
(٤) البيت لبشار بن برد .
(٥) الخضراء : النواحى المزروعة .
(٦) الوكز : ضرب الظهر .
(٧) الأكارون : الفلاحون .
(٨) نواطير : جمع ناطور وهو البستانى .
(٩) الزند الوارى : الزند الجيد الذى تخرج منه النار .

— أعزك الله — لباسَ إنعامك ، وعطّلتنى من حَلْيِ إيناسك ، وأظمأتنى إلى بَرُود[١] إسعافك ، ونَفَضْتَ بي كفَّ[٢] حياطتك ، وغَضَضْتَ عنى طَرْف حمايتك ، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصمُّ ثنائى عليك ، وأحسَّ الجماد باستحمادى[٣] إليك ، فلا غَرْوَ قد يَغَصُّ بالمــاء شاربُه ، ويقتل الدواء المُستَشْفِيَ به ، ويُؤْتَى الحَذِرُ[٤] من مَأْمَنه ، وتكون مَنِيَّةُ المتمنِّى فى أُمْنِيَّتِه ، والحَيْنُ[٥] قد يَسْبِق جَهْدَ الحريص :

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتى ... وتهونُ ، غَيْرَ شماتة الحُسَّاد

وإنى لأتجلَّد ، وأُرِى الشامتين أنى لرَيْب الدَّهْر لا أَتَضَعْضَع ، فأقول[٦] : هل أنا إلا يدٌ أَدْماها سِوَارُها ، وجَبِينٌ عَضّه إكليلُه[٧] ، ومَشْرَفِيٌّ[٨] ألصقه بالأرض صاقِله ، وسَمْهَرِيٌّ[٩] عرضه على النار مُثَقِّفه[١٠] ، وعبدٌ ذهب به سيده مذهب الذى يقول[١١] :

فقَسَا ليَزْدَجِرُوا ومَنْ يكُ حازمًا ... فَلْيَقْسُ أحيانًا على مَنْ يَرْحَمُ

---

(١) برود : بارد ، استعار الماء للإسعاف .

(٢) كناية عن عدم عنايته به ، ونفضت : طرحت ، والحياطة : الرعاية .

(٣) استحماده : طلب حمده ، وفى رواية : باستنادى إليك .

(٤) مثل ومعناه واضح .

(٥) الحين : الموت ، والعبارة كلها مثل مشهور .

(٦) بعد أن بدأ الرسالة بالاستعطاف والتذلل ، أخذ يسرى عن نفسه بضرب الأمثال .

(٧) الإكليل : التاج .

(٨) المشرفى : السيف ، والصاقل : الحداد الذى يجلوه .

(٩) السمهرى : الرمح .

(١٠) مثقفه : صاقله وصانعه .

(١١) هو أبو تمام .

هذا العَتبُ محمودٌ عواقبُه ، وهذه النَّبوَةُ[١] غَمْرَةٌ[٢] ثم تنجلي ، وهذه النكبَةُ سحابة صَيفٍ عن قليل تَقَشَّعُ[٣] ولن يَريبنى من سيدى أن أبطأَ سَيْبُهُ[٤] أو تأخر — غير ضَنِين — غَناؤه[٥] ، فأبطأُ الدِّلاء فَيْضًا أملؤها ، وأثقلُ السحائبِ مَشياً أحْفَلُها[٦] ، وأنفع الحيا[٧] ما صادف جَدْباً وألذُّ الشرابِ ما أصابَ غليلا[٨] . ومع اليوم غد ، ولكل أجَلٍ كتاب . له الحمد على اهْتِباله[٩] ، ولا عَتْب عليه فى إغفاله :

فإن يكنِ الفعلُ الذى ساء واحداً فأفعاله اللائى سَرَرْنَ أُلوفُ

وأعود فأقول[١٠] : ليت شعرى ما هذا الذنب الذى لم يَسَعْه عَفْوُك ، والجهل[١١] الذى لم يَأتِ من ورائه حلمك ، والتَّطاوُل[١٢] الذى لم يستغرقه تطوُّلك[١٣] ، والتحامل الذى لم يَفِ به احتمالك ، ولا أخلو من أن أكون بريئًا فأين العدْل؟ أو مُسيئًا فأين الفضل ؟ :

إلاَّ يَكُنْ ذَنبٌ فعَدْلُكَ واسِعٌ أو كانَ لى ذَنبٌ ففَضْلُك أوْسَعُ[١٤]

---

(١) النبوة : الجفوة .

(٢) الغمرة : الشدة ، وهذا مثل يضرب لليسر بعد العسر .

(٣) مثل آخر بنفس المعنى ، وتقشع : تقلع .

(٤) السيب : العطاء .

(٥) الغناء : المال والنفع .

(٦) أحفلها : أملؤها .

(٧) الحيا : المطر .

(٨) الغليل : شدة العطش .

(٩) الاهتبال : الاغتنام وإتاحة الفرصة .

(١٠) رجع ابن زيدون يتذلل ويقيس ذنبه إلى الذنوب الكبيرة ليستصغره جهور ، فينال عفوه .

(١١) الجهل : الحمق .

(١٢) التطاول : الاستعلاء والتكبر .

(١٣) التطول : التفضل والإحسان .

(١٤) البيت من قصيدة للبحترى .

حَنَانيك [١] ! قد بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى [٢] ، ونالنى ما حَسْبِي بِهِ وكَفَى ، وما أرانى إلا أُمِرْتُ بالسجود [٣] لآدم فأَبَيْتُ واستَكبَرْتُ ، وقال لى نوح ارْكَبْ معنا [٤] فقلت « سآوِى إلى جبلٍ يعصمنى من الماء » وأُمِرْتُ ببناء الصَّرْح [٥] لعلى أَطَّلِعُ إلى إله موسى ، وعكَفْتُ على العِجْل [٦] واعتَدَيْتُ فى السَّبْت [٧] ، وتعاطيت فعقَرْتُ [٨] ، وشَرِبْتُ من ماء النهر الذى ابْتُلِىَ به جنود [٩] طالوت ، وقُدْتُ الفيل لأَبرَهة [١٠] ، وعاهدتُ قريشاً على ما فى الصحيفة [١١] ، وتأوَّلتُ فى بيعة العَقَبة [١٢] ، وانخَذَلْتُ بثُلُثِ الناس يوم أُحُد [١٣] ، ونفَرْتُ إلى العير [١٤] ببَدْر ، وتخلفتُ عن صلاة العصر فى بنى قُرَيْظَة [١٥] ، وجئتُ لإفك [١٦] على

---

(١) حنانيك : رحمتك .

(٢) مثل يضرب حين يتفاقم الأمر ، والزبى : جمع زبية ، وهى الحفرة فى المكان المرتفع .

(٣) يشير إلى استكبار إبليس عن السجود لآدم .

(٤) يتمثل بقصة نوح حين فاض الطوفان فقال لابنه اركب معنا فعصاه ، فقال كما فى القرآن الكريم « سآوى إلخ » فغرق .

(٥) يشير إلى قصة فرعون وأنه أمرهامان أن يبنى له صرحاً أى قصراً عالياً لعله يرى إله موسى .

(٦) قصة العجل الذى عبده بنو إسرائيل حين تأخر عليهم موسى معروفة .

(٧) حرم موسى على قومه أن يصيدوا فى يوم السبت .

(٨) يشير إلى قصة ناقة صالح وعاقرها أو قاتلها وكيف « دمدم عليهم ربهم بذنبها » .

(٩) كان طالوت قد حرم على قومه الشرب من نهر فخالفوه ووقعوا فى الإثم .

(١٠) يشير إلى قصة أبرهة عامل اليمن من قبل النجاشى وخروجه فى جيش لهدم الكعبة .

(١١) هى الصحيفة التى كتبتها قريش وتعاهدت فيها على مقاطعة الرسول .

(١٢) بيعة العقبة : بيعة مشهورة بين الرسول وأصحابه ، وقد يفهم من كلامه أن بعض الصحابة تأول فيها وهو ما لم يحدث مطلقاً .

(١٣) يشير إلى واقعة أحد حين انخذل عن رسول الله ابن سلول ومن معه من المنافقين ، ورجعوا بنحو ثلث الجيش .

(١٤) العير : الإبل تحمل عروض التجارة أو الميرة ، وهو يشير إلى غزوة بدر الكبرى وكان أبو سفيان عرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيتعرض لقافلته فأرسل إلى قريش يستنفرها ، فجاءته بجيش ودارت عليها الدوائر .

(١٥) أمر رسول الله أصحابه بعد غزوة الخندق أن يصلوا العصر فى بنى قريظة ، على أن من تخلف لم يعتبر هذا ذنباً له ! (١٦) قصة الإفك والكذب على السيدة عائشة رضى الله عنها مشهورة .

عائشة الصِّدِّيقيَّة ، وأَنِفتُ من إمارة أُسامة[١] ، وزعمت أن بيعة أبي بكر كانت فَلْتَة[٢] ، وروَّيْتُ رمحي من كتيبة خالد[٣] ، ومزَّقْتُ الأديم[٤] الذي باركت يَدُ الله عليه ، وضحَّيْتُ بالأشمَط[٥] ، الذي عنوانُ السجود به ، و بذلت لقَطامِ[٦] :

ثلاثةَ آلافٍ وعَبْدًا وقَيْنَةً وضَرْبَ عليٍّ بالحُسامِ المُسَمَّمِ

وكتبتُ إلى عمر[٧] بن سَعد : أنْ جَعْجِعْ[٨] بالحُسَين ، وتمثَّلتُ عند ما بلغني من وَقْعَة الحَرَّة[٩] :

ليت أشياخي ببَدْرٍ عَلِمُوا جَزَعَ الخزرج من وَقْع الأسَلْ

ورَجمتُ الكعبة ، وصَلبتُ العائذ[١٠] بها على الثَّنِيَّة — لكان[١١] فيما جَرَى عليَّ ما يَحْتمل أن يُسمَّى نَكالا ، ويُدْعَى ولو على المجاز عقابا :

(١) يشير إلى ما يروى من أن بعض الصحابة غضب حين ولى عليهم أسامة .

(٢) قال عمر : كانت بيعة أبي بكر فلتة ، ولم يرد بقوله سوءاً بأبي بكر ، فمن الخطأ أن يتمثل في الذنوب بهذه العبارة .

(٣) يشير إلى من حاربوا خالداً في أيام الردة .

(٤) يشير إلى قتل عمر وقول الشاعر في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم الممزق

(٥) الأشمط : الذي في شعره بياض يخالطه سواد ، وهو يقصد عثمان مشيرا إلى مقتله وفيه يقول حسان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآنا

(٦) قطام : صاحبة ابن ملجم قاتل علي بن أبي طالب .

(٧) يشير إلى قتل الحسين ، وأخطأ ابن زيدون لأن الذي كتب إليه هو الحر بن يزيد التميمي لا عمر بن سعد .

(٨) جعجع : ضيق الخناق .

(٩) المتمثل هو يزيد بن معاوية ، تمثل بهذا البيت لابن الزبعرى الذي نظمه في واقعة أحد ، وذلك حين علم بهزيمة جيوشه لأهل المدينة الخارجين عليه .

(١٠) يشير إلى رجم الحجاج الكعبة بالمنجنيق وقتله للعائذ بها ، وهو عبد الله بن الزبير ، على الثنية وهي طريق الكعبة .

(١١) جواب « لو » المذكورة في السطر الثاني من الصفحة السابقة .

وحَسْبُكَ من حادثٍ بامرىءٍ   ترَى حاسِدِيه له رَاحِمِينا

فكيف (١) ولا ذنبَ إلا نميمةٌ أهداها كاشِحٌ (٢) ونبأ جاء به فاسقٌ . وهمُ الهمّازون (٣) المشّاءون (٤) بنَميمٍ ، والواشون الذين لا يلبثون أن يَصْدَعوا العصا (٥) ، والغُوَاة الذين لا يتركون أديمًا (٦) صحيحًا ، والسُّعاة الذين ذكرهم الأحنف بن قَيْسٍ فقال . ما ظنُّك بقومٍ الصدقُ محمودٌ إلا منهم :

حَلَفْتُ فلم أَتْرُكْ لنفسك ريبةً   وليس وَراء الله للمرء مَذهبُ (٧)

والله ما غَشَشْتُك بعد النصيحة ، ولا انحرفتُ عَنك بعد الصّاغية (٨) ، ولا نَصَبْت (٩) لك بعد التشيُّع ، ولا أَزْمَعْتُ (١٠) يَأسًا منك مع ضَمانٍ تكفّلتْ بِه الثِّقَةُ عنك ، وعَهْدٍ أخذه حُسْنُ الظَّنِّ عليك ، ففيم عَبِثَ الجفاء بأَذِمّتي (١١) وعاث العقوقُ فى مَتاتى (١٢) ، وتمكّن الضياع من وسائلى ؟ ولِمَ ضاقَتْ مذاهبى : وأكْدَتْ (١٣) مطالبى ؟ وعلام رَضِيتُ من المَرْكَب بالتعليق (١٤) ، بل من الغنيمة

---

(١) أخذ يبرىء نفسه من التهمة التى دسها عليه النمامون والواشون كذبًا .
(٢) كاشح : عدو .
(٣) الهمازون : من الهمز وهو الغيبة .
(٤) المشاءون : الساعون بالنميمة .
(٥) كناية عن التفريق .
(٦) الأديم : الجلد ، كناية عن الشخص كله .
(٧) البيت للنابغة .
(٨) الصاغية : الميل .
(٩) نصبت لك : عاديتك
(١٠) أزمع : أقدم .
(١١) الأذمة : الحرمات ، جمع ذمام .
(١٢) المتات : ما يتوصل به الإنسان إلى آخر من رحم أو قرابة وفى رواية : فى مودتى .
(١٣) أكدت : بخلت .
(١٤) يريد أنه يكتفى من الركوب بتعليق الأمتعة .

بالإياب[1] ، وأنّى غلبني المُغَلَّب[2] ، وفخر عليّ العاجز الضعيف، ولَطَمَتْنى غَيْرُ ذات سِوَار[3] ؟. ومالك لا تَمْنَع منى قبل أن أفتَرَس، وتُدْرِكني ولما أمزّق، أم كيف[4] لا تتضرَّم جوانحُ الأكفاء[5] حَسَداً لى على الخصوص بك، وتتقطّع أنفاسُ النُّظَراء منافسةً فى الكرامة عليك، فكيف وقد زانني رَسمُ خِدْمَتك، وزهاني وَسْمُ نعمتك، وأبلَيْتُ البلاء الجميل فى سِماطك[6] ، وقمت المقامَ المحمود على بساطك :

ألستُ المُوَالى فيك غُرَّ قصائدٍ … هىَ الأنجمُ اقتادت مع اللَّيلِ أنجُما
ثناءً يُظَنُّ الرَّوضُ منه مُنَوَّرًا … ضُحًى ويُخَالُ الوَشْىُ فيه مُنَمْنَمَا[7]

وهل لبسَ الصباحُ إلا بُرْدًا طرَّزْتَه بفضائلك، وتقلَّدَتِ الجَوْزاء إلا عِقدًا فصَّلتُه بمآثرك، واستَمْلَى الرَّبيعُ إلا ثناء مِلأْتُه بمحاسنك، وبثَّ المسكُ إلا حَدِيثاً أذَعْتُه فى محامدك ؟ . ما يوم حليمةَ بسرٍّ[8] ، وإن كنت لم أكْسُكَ سَلِيباً، ولا حَلَّيْتُك عُطلاً ، ولا وَسَمْتُك غُفْلاً ، بل وجدت آجُرًّا وجِصًّا فبنيتُ، ومكانَ القول ذا سَعة فقلتُ. حاشَ لك أنْ أُعدَّ من العاملة الناصبة[9] ،

(١) يشير إلى قول امرىء القيس :

لقد طوفت فى الآفاق حتى … رضيت من الغنيمة بالإياب

(٢) المغلب : الضعيف .

(٣) فى المثل لوذات سوار لطمتنى ، ويقصد أن اللاطم ضعيف .

(٤) انتقل ابن زيدون إلى بيان إخلاصه للممدوح وكيف كان من مداحه وخاصته .

(٥) الأكفاء : النظراء .

(٦) السماط : الصف .

(٧) البيتان من قصيدة للبحترى .

(٨) مثل يضرب فى كل أمر مشهور .

(٩) يشير إلى قوله تعالى « وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية »

وأكونَ كالذبالة المنصوبة تُضِيء للناس وهى تحترق[١]، فلكَ المثل الأعلى، وهو بك، وبى فيك، أولى .

ولعمركَ ما جهلت أن صريح الرأى أن أتحوّل[٢] إذا بلغتنى الشمسُ ونبا بِىَ المَنْزِل، وأصفحَ[٣] عن المطامع التى تقطِّع أعناق الرجال، ولا أستوطِىء العجز، ولا أطمئنّ إلى الغرور، فيُضْرَبَ بى المثل : خامِرِى أمَّ عامرِ[٤] . وإنى مع المعرفة بأن الجَلاء[٥] سِباء، والنُّقلَة مُثْلَة[٦] :

وَمَنْ يَغْتَرِبْ عن قومه لم يَزَلْ يرى مصارعَ مظلومٍ : مَجَرًّا ومَسْحَبَا
وتُدْفَنُ منه الصالحاتُ، وإن يُسِىءْ يَكُنْ ماأساءالنارَفى رأسِ كَبْكَبَا[٧]

لعارفٌ أن الأدبَ الوطنُ الذى لا يُخْشَى فِرَاقُه، والخليطُ الذى لا يُتوَقَّع زِيالُه، والنسبُ الذى لا يُجْفَى، والجمال الذى لا يَخْفَى . ثم ما قِرانُ السَّعْد بالكواكب أبْهَى أثرًا، ولا أسْنَى خَطَرًا، من اقترانِ غِنَى النَّفْس به، وانتظامِها نَسَقًا معه، فإن الحائزَ لهما الضاربَ بسَهْمٍ فيهما — وقليلٌ ماهُمْ — أينما توجَّه وردَ أعذبَ مَنْهَلَ، وحَطَّ فى جَناب قَبول فنزل، وضُوحِكَ قبل إنزال رَحْله، وأُعْطِىَ حُكْمَ الصَّبِىِّ على أهله :

---

(١) نثر قول العباس بن الأحنف :
صرت كأنى ذبالة نصبت تضيء للناس وهى تحترق
(٢) هنا ثارت نفس ابن زيدون، فأخذ يهدد بفراقه للوطن، وأنه لا يصبر على الهوان .
(٣) أصفح : أضرب وأعرض .
(٤) خامرى : استترى، وأم عامر : الضبع ؛ وهو مثل يضرب لمن عرف الدنيا ومصيرها وتقلباتها ومع ذلك لا تزال نفسه متعلقة بها .
(٥) الجلاء : النزوح عن الوطن، والسباء : السبي والأسر .
(٦) مثلة : نكال وعقاب .
(٧) كبكب : اسم جبل بعينه، وهو الجبل الذى تجعله خلف ظهرك إذا وقفت مع الإمام بعرفات (عن معجم ما استعجم) . والبيتان للأعشى .

وقيل له : أهلاً وسَهْلاً ومَرْحَباً فهذا مَبيتٌ صالحٌ ومَقِيلُ[١]

غيرَ أن الوطن محبوبٌ[٢] والمنشأ مألوف ، واللبيبَ يَحِنُّ إلى وطَنه ، حنينَ النجيبِ[٣] إلى عَطَنِه ، والكريمُ لا يَجفُو أرْضاً فيها قوَابلُه[٤] ، ولا يَنْسَى بَلَداً فيها مَراضعه ، قال الأول[٥] :

أَحَبُّ بلادِ اللهِ مابين مَنْعِجٍ[٦] إلىَّ وسَلْمَى أن يَصُوبَ[٧] سَحَابُها

بلادٌ بها حَلَّ الشَّبابُ تمائمِى[٨] وأوّلُ أرض مَسَّ جِلْدِى ترابُها

هذا إلى مغالاتى بعقْد[٩] جِوارك ، ومنافستى فى الحظِّ من قُرْبك ، واعتقادى أن الطمع فى غيرك طَبَع[١٠] ، والغِنى من سواك عَناء ، والبَدَل منك عَوَز[١١] ، والعِوَض لَفَاء[١٢] :

وإذا نَظَرْتُ إلى أَمِيرى زادَنى ضَنًّا به نظرى إلى الأُمَرَاءِ[١٣]

---

(١) مقيل : من القيلولة وهى هنا تقابل «مبيت» فيراد بها قضاء اليوم كله . والبيت لعمرو بن الأهتم.

(٢) هدأت ثورة ابن زيدون فأخذ يعلن أنه لن يزايل جوار جهور ولا مدينته التى هى وطنه وبلده .

(٣) النجيب : الكريم من الإبل ، والعطن : مبارك الإبل حول الماء .

(٤) القوابل : جمع قابلة ، وهى التى تستقبل المولود عند نزوله .

(٥) يروى هذا البيت لأعرابية من طيء وفى رواية ثانية أنه لأبى النضير الأسدى وفى رواية ثالثة أنه للرقاع بن قيس الأسدى . انظر سمط اللآلى للبكرى ١ / ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٦) منعج : موضع .

(٧) يصوب : يهطل .

(٨) التمائم : جمع تميمة وهى العوذة التى تعلق على الصبى لاتقاء الحسد .

(٩) العقد : الضمان والعهد .

(١٠) طبع : دناءة وخسة .

(١١) عوز : فاقة .

(١٢) لفاء : خسة .

(١٣) البيت لعدى بن الرقاع .

وكلُّ الصَّيْد فى جَوْف[١] الفَرَا ، وفى كل شجرةٍ نار ، واستَمْجَدَ المَرْخُ والعَفَار[٢] .

فما هذه البراءة[٣] ممن يتولَّاك ، والمَيْلُ عمَّنْ لا يميل عنك ، وهلَّا كان هواكَ فيمن هواه فيك ، ورضاكَ لمن رضاه لك :

يا مَنْ يَعِزُّ علينا أن نفارقَهُمْ   وِجْدَانُنَا كلَّ شىء بعدكم عَدَمُ[٤]

أُعيذكَ ونفسى من أن أَشِيم[٥] خُلَّباً ، وأَستَمْطِرَ جَهَاماً[٦] ، وأَكْدِمَ فى غير مَكْدَم[٧] ، وأشكو شَكْوَى الجريح إلى العِقْبان والرَّخَم[٨] . وإنما أَبْسَسْتُ[٩] لك لتَدُرّ ، وحرّكتُ لكَ الحُوَار[١٠] لتحنَّ ، ونَبَّهتك لأنام ، وسَرَيْتُ إليك ، لأَحْمَدَ السُّرَى لديك ؛ بعد اليقين أنكَ إن سنَّيْتَ[١١] عَقْد أمرى تيسَّر ، ومتى أَعْذَرْتَ[١٢] فى فَكّ أَسرِى لم يَتَعَذر . وعِلْمُك محيطٌ بأن المعروف ثمرةُ النعمة والشفاعة زكاةُ المروءة ، وفضل الجاه ، تعود به ، صَدَقَة :

---

(١) مثل يضرب فى الشىء الذى يفضل غيره ، والفرا : حمار الوحش .

(٢) نفس معنى المثل السابق ، والمرخ والعفار : نوعان من الشجر سريعا الاتقاد ، واستمجدا : زادا نارا واحتراقا .

(٣) رجع ابن زيدون يستعطف ابن جهور متذللا خاضعاً لعله يلين له .

(٤) البيت للمتنبى .

(٥) شام خلبا : نظر إلى برق لا يصحبه مطر .

(٦) الجهام : السحاب لا غيث فيه .

(٧) مثل يضرب لمن يطلب الشىء من غير موضعه ، والكدم : العض .

(٨) نثر ابن زيدون هنا قول المتنبى :

ولا تشكُ إلى قوم فتشمتهم   شكوى الجريح إلى العقبان والرخم

والعقبان : جمع عقاب ، والرخم : من جوارح الطير كالنسور .

(٩) أبسست : رفقت . وتدر : تسيل ، كناية عن تحوله إلى الرضا .

(١٠) الحوار : ولد الناقة .

(١١) سنى : سهل .

(١٢) أعذر : طلب العذر .

وإذا امرؤٌ أهْدَى إليك صَنِيعةً   من جاهه فكأنها مِن ماله[١]

لعلى أُلـقِى العصا بذَرَاكَ[٢]، وتستقرَّ بىَ النَّوَى فى ظِلِّك، وأستأنف التأدُّبَ بأدبك، والاحتيالَ على مذهبك، فلا أُوجِدَ للحاسد مجال لحظة، ولا أدعَ للقادح مَساغَ لفظة. والله شهيدك من إطلابى[٣] بهذه الطَّلِبة، وإشكائى[٤] من هذه الشَّكْوَى، بصنيعةٍ تُصِيبُ منها مكان المَصْنَع[٥]، وتَستودِعُها أحفظ مُستَوْدَع، حسبما أنت خليقٌ له، وأنا منك حَرِىٌّ به، فذلك بيدك، وهيِّنٌ عليك.

ولما توالت غُرَرُ هذا النَّثْر، واتَّسَقَتْ دُرَرُه، فَهَزَّ عِطْفَ غُلَوائه، وجَرَّ ذَيْلَ خُيَلائه، عارضه النظم مباهيا، بل كايده مُداهيا، حين أشفق من أن يَعْطِفك استعطافُه، وتميل بنفسك أَلْطافه، فاستحسن العائدة[٦] منه، واعتدَّ بالفائدة له فما زال يَسْتَـكدُّ الذِّهنَ العليل، والخاطر الـكايل، حتى زَفَّ إليك عروسًا مجلوة فى أثوابها، منصوصةً[٧] بحَلْيِها ومَلابها[٨]، وها هى:

الهوَى فى طُلُوعِ تلك النجوم   والمُنَى فى هبوبِ ذاك النسيمِ

سرَّنا عَيْشُـنا الرَّقيق الحواشى   لو يدومُ السرورُ للمُسْـتَدِيمِ

---

(١) البيت لأبى تمام.

(٢) الذرى: الكنف والجانب.

(٣) إطلابى: من أطلبه أى أعطاه ما طلبه.

(٤) إشكائى: إزالة شكواى.

(٥) المصنع: الصنع والمعروف، مصدر ميمى.

(٦) العائدة: النفع.

(٧) منصوصة: مجلوة.

(٨) الملاب: الزعفران.

وَطَرٌ ما انقضى إلى أنْ تَقَضَّى، زَمَنٌ ما ذِمامُهُ[١] بالذَّميم
إذْ خِتامُ الرِّضَا المَسوَّغ مِسْكٌ ومِزَاجُ الوصالِ من تَسْنيم[٢]
وغَرِيضِ[٣] الدَّلالِ غَضٌّ[٤] جَنَى الصَّبْـــوَةِ نَشْوانَ من سُلافِ النَّعيم
طالما نافَرَ الهوَى منه غِرٌّ لم يَطُلْ عَهْدُ جيدِهِ بالتَّميم[٥]
زَارَ مُسْتَخْفِياً وهيهات أن يَخْـــفَى سُرَى البَدْرِ فى الظَّلامِ البهيم
فوَشَى الحَلْىُ إذ مَشَى وهَفَا الطِّيـــبُ إلى حِسِّ كاشحٍ بالنَّميم
أيُّها المُؤْذِنى بظُلْمِ اللَّيَالى ليس يومى بواجدٍ[٦] من ظَلُومِ
قَمَرُ الأُفْقِ إن تأمَّلْت والشمـــسُ، هما يُكْسَفان دون النجومِ
وهُوَ الدهر ليس ينفكُّ يَنْحُو بالمُصَابِ العَظِيمِ نَحْوَ العَظِيم
بوَّأَ اللهُ جَهْوَرًا شرف السُّؤْ دُدِ فى السَّرْوِ[٧] واللُّبابِ الصَّميم
واحِدٌ سَلَّمَ الجميعُ له الأمْـــرَ فكان الخصوصُ وَفْقَ العُمومِ
قَلَّدَ الغُمْرُ[٨] ذا التجاربِ فيهِ واكْتَفَى جاهلٌ بِعِلْمِ العَلِيمِ
خَطِرٌ[٩] يَقْتَضِى الكمالَ بنَوْعَىْ خُلُقٍ بارعٍ وخَلْقٍ وَسيمِ[١٠]

---

(١) الذمام : العهد .

(٢) التسنيم : عين بالجنة ، وفى القرآن الكريم « يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم » .

(٣) غريض الدلال : مملوء به .

(٤) غض : ناضر .

(٥) التميم : التميمة وهى العوذة .

(٦) واجد : حاقد .

(٧) السرو : الشرف .

(٨) الغمر : قليل التجربة .

(٩) خطر : شرف .

(١٠) وسيم : وقور .

أَبِهٰذَا الوزيرُ ها أنا أشكو والعَصَا بَدْء قَرْعِها للحَليم[١]

أفصَبْرٌ مئينَ خَمْسًا[٢] من الأيَّـــام ناهيك من عَذابٍ أليمِ

ومُعَنًّى من الضَّنَى بهَنَاتٍ نكأت[٣] بالكُلُوم قَرْحَ الكُلُومِ

سَقَمٌ لا أُعادُ[٤] فيهِ وفى العــائدِ أُنسٌ يَفِى ببُرْء السَّقيمِ

نارُ بَغيٍ سَرَى إلى جَنَّةِ الأَمْــنِ لَظاها فأصبحتْ كالصَّرِيمِ[٥]

بأبِي أنت إن تَشَأْ تَكُ بَرْدًا وسلامًا كنــار إبراهيمِ

للشَّفيع الثناء ، والحمدُ فى صَوْ بِ الحَيَا[٦] للرياح لا لِلغيُومِ

وزعيمٌ[٧] بأنْ يُذَلِّلَ لى الصَّعْــبَ مَثَابِى[٨] إلى الهُمام الزعيمِ

ووِدادٌ يُغَــيِّرُ الدَّهرُ ما شــاء ويَبْقَى بقاء عَهْدِ الكريمِ

وثنــاء أرسَلْتُهُ سَلْوَةَ الظَّا عِنِ عَنْ شَوْقهِ[٩] ولَهْوَ المُقيمِ

فَهْوَ ريحانَةُ الجليسِ ، ولا فَخْــرَ ، وفيهِ مِزَاجُ كأسِ النَّديمِ

ومَتى تَبْدَأ الصنيــعةَ بُوليعنــكَ تمامُ الخِصــال بالتَّتميمِ

ها كها — أعزَّكَ اللهَ — يبسُطها الأمل ، ويَقبِضُها الخجَل ، لها ذَنْب التقصيرِ ، وحُرْمة الإخلاص ، فهَبْ ذَنبًا لحُرْمة ، واشفَع نعمةً بنعمة ، ليتأتَّى لك الإحسانُ من جهاته ، وتَسْلُكَ إلى الفضل من طُرُقاته ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) تضمين للمثل المشهور « إن العصا قرعت لذى الحلم » .

(٢) إشارة إلى أنه قضى فى السجن خمسمائة يوم .

(٣) نكأ : أدمى ، والكلوم : الجروح ، والقرح : ما بالجرح من فساد .

(٤) أعاد : أزار .

(٥) الصريم : الليل الأسود .

(٦) الحيا : الغيث .

(٧) زعيم ، كفيل .

(٨) مثابى : رجوعى .

(٩) يقول إن مدحه فيه سار على ألسنة الناس ، فأصبح سلوة الظاعن أى الراحل ومسرة المقيم .

أهم المراجع

ديوان ابن زيدون نشر كامل كيلانى وعبد الرحمن خليفة .

تمام المتون شرح رسالة ابن زيدون للصفدى .

سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة .

الذخيرة لابن بسام ، المجلد الأول ، من القسم الأول .

قلائد العقيان للفتح بن خاقان .

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى .

المغرب فى حلى المغرب (طبع دار المعارف) .

نفح الطيب للمقرى (طبع ليدن) .

A. Cour, Un poète Arabe d'Andalousie : Ibn Ẕaidoûn.

A.R. Nÿkl, Hispano-Arabic poetry.

فهرست

الفصل الأول

عصر ابن زيدون

الفصل الثانى

ابن زيدون فى عصره

الفصل الثالث

جوانب ابن زيدون

الفصل الرابع

منتخبات من آثار ابن زيدون

صفحة

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

فى الدراسات القرآنية

- سورة الرحمن وسور قصار : عرض ودراسة .
  الطبعة الأولى ٤٠٤ صفحات

فى تاريخ الأدب العربى

- العصر الجاهلى
  الطبعة الثامنة ٤٣٦ صفحة
- العصر الإسلامى
  الطبعة الثامنة ٤٦١ صفحة
- العصر العباسى الأول
  الطبعة السابعة ٥٧٦ صفحة
- العصر العباسى الثانى
  الطبعة الثالثة ٦٥٧ صفحة

فى مكتبة الدراسات الأدبية

- الفن ومذاهبه فى الشعر العربى
  الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى
  الطبعة الثامنة ٤٠٠ صفحة
- التطور والتجديد فى الشعر الأموى
  الطبعة السادسة ٣٤٠ صفحة
- دراسات فى الشعر العربى المعاصر
  الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
- شوقى شاعر العصر الحديث
  الطبعة السابعة ٢٨٦ صفحة
- الأدب العربى المعاصر فى مصر
  الطبعة السابعة ٣٠٨ صفحات
- البارودى رائد الشعر الحديث
  الطبعة الثالثة ٢٣٢ صفحة
- الشعر والغناء فى المدينة ومكة لعصر بنى أمية .
  الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- البحث الأدبى : طبيعته . ومناهجه . أصوله . مصادره .
  الطبعة الرابعة ٢٧٨ صفحة
- الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
  الطبعة الأولى ٢٥٦ صفحة

فى الدراسات النقدية

- فى النقد الأدبى
  الطبعة الخامسة ٢٥٠ صفحة
- فصول فى الشعر ونقده
  الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

فى الدراسات البلاغية واللغوية

- البلاغة : تطور وتاريخ
  الطبعة الرابعة ٣٨٠ صفحة
- المدارس النحوية
  الطبعة الرابعة ٣٧٦ صفحة

فى مجموعة نوابغ الفكر العربى

- ابن زيدون

الطبعة التاسعة ١٢٤ صفحة

فى مجموعة فنون الأدب العربى

- الرثاء

الطبعة الرابعة ١٠٨ صفحات

- المقامة

الطبعة الخامسة ١١٢ صفحة

- النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

- الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

- الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

فى التراث المحقق

- المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول – الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثانى – الطبعة الثانية ٥٧٢ صفحة

- كتاب السبعة فى القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

فى سلسلة اقرأ

- العقاد
- البطولة فى الشعر العربى

رقم الإيداع	١٩٨١/٣٢٤٩
الترقيم الدولى	٩٧٧-٧٣٤٦-١١-٥ ISBN

١/٨١/٥٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)